جَذَامِير

قيس عمر محمد محمود

جَذَامِير

قصص قصيرة

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2018 م

الناشر: دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5123333 9716+
بـرّاق: 5123303 9716+
بريد إليكتروني: sdc@sdc.gov.ae

© حقوق النشر والطبع محفوظة
الطبعة الأولى 2018

تصميم الغلاف: ضياء الدين الدوش

813.01
م ق . ج
محمد، قيس عمر
جذامير / قيس عمر محمد . ـ الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : دائرة الثقافة ، 2018.
152ص ؛ 21x14 سم
الكتاب الفائز بالمركز الثالث في جائزة الشارقة للإبداع العربي (الإصدار الأول) في مجال القصة القصيرة،
الدورة 21: 2017 – 2018 .
1 ـ القصص العربية القصيرة ـ العراق
أ ـ جائزة الشارقة للإبداع العربي (21 : 2018)
ب ـ العنوان

ISBN: 9789948393764

الإهداء

إليك يا صديقي عامر جميل

وأنت تطوي سجادة اسمها

جمرة الحياة...

الموصلُ تمشّطُ لسانها

«قَبْلَ أنْ تُغْلِقَ عَيْنَيْكَ عَلَى آخِرِ حَـرْفٍ تُبْصِرُهُمْ مُتَحلّقِينَ حَوْلَكَ ثُمَّ تُغْلِقُ العَيْنَيْنِ مَرّةً أُخْرَى وَتُبْصِرُهُمْ فِي الرّؤْيَا يَسِيرُونَ فِي دُرُوبٍ حَادّةٍ.. وَمُسْتَقِيمَةٍ.. وَحِيدَةٍ.. وَمُبْتَلّةٍ.... يُمَشّطُونَ مِنْ حَوْلِكَ ألْسِنَتَهُمْ.. لِتَتَسَاقَطَ لُغَاتُ العَالَمِ بِوَجْدٍ عتِيقٍ، ثُمّ تَحْصُدُكَ المِياهُ. وَيَعْلو صَوْتُ الصّرِيفِ.... دُونَ هَوَادَةٍ».

حشرجةُ الترائب

قرأ المعلم أسماء الطلاب الثلاثية، وحين وصل إلى اسمي الثلاثي لم أشعر باسم أبي أو جدّي، إنما شعرت بانبعاج عميق في جسدي وروحي، وشعرت بأنّي أسقط وأهوي في ذلك الانبعاج السحيق، تلك كانت هي الأيام الأولى لي وأنا أدشّن معنى أن تكون دون أباً يحرس ذكرياتك وأنت تكبر أمامه ويمد اخضراره حولك، كنت أتخيل بقية الطلاب، وأحاول أن أتخيل استشعارهم لأسمائهم الثلاثية وهم يتلمّظون بحرارة الأسماء حين ينطقها المعلم وهي خالية من أي انبعاج. أنا الوحيد في الصف كنت عبارة عن اسم يتبعه انبعاج ثم تيبس في الحلق.

شغوفاً كنت بالتفتيش عن العطر الذي يخلفه الموت بعد رحيله..

شـــغوفاً بالتفاصيل التي ترتعش بحضرتها الأفواه ويرتعش لها جُلاس المـــوت، أبحث بإصرار كبير عن أي أثر يخلفه الموت بعد أن يســـتلّ روح الإنسان. كنت مولعاً باكتشاف تلك الرائحة العصية، وتصورت دومـــاً أنـــه يترك خلفه أثراً هـــو أقرب لعطر الأرحام المغســـولة بمياه أبنوســـية، وأتخيّل نفســـي بعد أن تغـــادر الروح الجثـــة حاضراً أفتشُ عن الرائحة الأبنوســـية الغاطســـة، وكلما كنت قرب جثة أحاول تتبع خطواتـــه من باب البيت مـــروراً بحوش الدار، ثم إلى الغرفة، وتنتهي الرحلة في فراش الجثة، أحببت أن أرســـم مســـاراته التي ســـار فيها، وأتتبـــع وقـــع خطواته، هل كانت ثقيلة أم خفيفة؟ كنت أســـتحضر بكل عمق التفاصيل التي يمكن له أن يخلفها بعد رحيله.

كانت أغلب الجثث التي رأيتها موشّحة باللون الأصفر، وشخصت عيونهـــا إلى الأعلى بشـــكل عنيـــف، وبعض الجثث كانـــت وجوهها مرتخية ومتهدلة، كأنها تطوي حقيبة سفر طويل، بعض الجثث كانت تشـــير بيدها لشـــيء رحـــل قبل أن يبصـــره أحد ما، وكنت أســـأل من حضر لحظة الموت، ماذا ســـمعتم؟ والكل يقول إنه سمع شخيراً عالياً ثم ينطفئ الجســـد تماماً؛ لكن البعض منهم قال إن الشخص الذي مات قال في آخر دقيقة إنه يشعر بقوة الضوء وحِدّةِ الأشعة الداخلة للعين، وكأن عيونهم تتشـــقّق وتفتح على ألوان وتخوم أبعادها بلورية تتكسر فيها الأشـــعة والمرئيات، وبعضهم قال إنه يشـــعر ببصره صار حاداً وقويـــاً بشـــكل غريب، إذ إنه يســـتطيع رؤية مســـافات لا يمكن للعقل إدراكهـــا، هكذا كان الموت يترك هذه العلامات ويرحل، وترحل معه

تلك الخفة الغريبة التي كانت تحرك هذا الجسد.

كانت هذه هوايتي السرية التي شغفت بها، ولا تزال تلك هي رغبتي السحيقة التي أورثتني الكثير من الخوف والندم، ليالي كثيرة لم أستطع النوم فيها من رعب هذا الزائر، أحياناً أحسد الميت؛ لأنه اختبر تلك اللحظة وانتهت ولن تتكرر معه من جديد، وأحياناً أقول من الجيد أني لم أكن ذلك الشخص، هكذا أفكار أورثتني وجعاً سحق وجودي، وأرقاً مزمناً في البحث عن علامات الموت والآثار التي يمكن له أن يتركها، كنت أعرف أنه يترك لي رسائل سرية أحتاج إلى اكتشافها، وأنّي أحتاج إلى المثابرة والكد للوصول إليها وفك رموزها اللائذة بالصمت.

***

لم أكن أصدّق يوماً أني سأكون حارساً للموتى، وأنا في العشرين من عمري، حدث هذا بعد كوارث أصابت المدينة، ونجحت في الحصول على هذا العمل بعد جهد كبير، ولم أكن أعرف هل القدر هو الذي ساق إليّ هذه المهمة التي تتناغم مع شغفي في اكتشاف عطر الموت؟ أم هو القدر والحاجة الملحة للعمل؟

من الجهة الشرقية للمقبرة يقبع مخفر الحراس، وهو عبارة عن غرفة صغيرة لا يتجاوز عمقها مترين وعرضها مترين، كان على القادم إليها أن يصعد ثلاث درجات حجرية متآكلة، ثم يشخص الباب الخشبي العتيق أمامه، وقد نخرته الثقوب وتعلق في وسطه قفل قديم،

مثل تميمة نهشتها الفصول بتعاقبها الرتيب.

كانت المقبرة صغيرة في الخمسينيات، ثم توسعت قليلاً في الستينيات والسبعينيات، ثم أخذت تبتلع الأراضي بكل شراهة وتتوسع في الثمانينيات وما بعدها، حتى استشعرت البلدية هذا الخطر الكبير، وعملت على تطويق ورسم حدودها، فصارت تطل على خمسة أحياء كبيرة تطل عليها بكل فداحة من جميع الجهات، أنى أشحت ببصرك تجد حدودها تمتد، وتحاول الالتصاق بحدود الأحياء المجاورة لها.

كان أول يوم لي فيها يوم نيساني جميل، وصلت إلى المقبرة ووجدت أحد موظفي البلدية بانتظاري ليسلمني مخفر الحراسة ومفتاح المقبرة، مع بعض التعليمات بضرورة القيام ببعض الجولات داخل المقبرة لحماية الراقدين، وطرد العابثين والداخلين إليها من الحدود الشمالية والجنوبية؛ لأن السياج الخاص بها صار مهدماً بفعل الزمن والسرقة، وصارت القبور تبدو مسفوحة من بعيد ودون حدود، سلّمني الموظف التعليمات ورحل، وبقيت وحدي وجهاً لوجه، جلست أمام باب المخفر الخاص بالحراس، وكنت أطلق بصري في الشواهد المترامية، كانت تبدو مثل الخرائب الصغيرة، وحين تحدّق فيها بتركيز تشاهد حجارة مبعثرة وكثباناً صغيرة من الرمال تنهشها الريح، وبعض الأشجار والأقفاص الحديدية التي تحمي بعض القبور، وتلمح هنا أو هناك بعض الزوار ينحدرون بين تلالها وشوارعها المتكسرة والترابية، لم أشعر كم بقيت أحدّق بتلك الجلسة الأولى، كنت مثل من يروي عطش السؤال الذي بقي يلازمني طيلة حياتي،

نهضت وأدرت المفتاح في القفل، دفعت الباب فأرسل الباب صريراً شعرت أنه يندس في تلك الأعماق الساكنة ويخترقها. شعرت أن صوت الصرير يغسل لحظات العزلة التي أحاطت بالحراس الذين سبقوني إلى هنا، ثم أولجت روحي في المكان عبر خطواتي.

كان الغبار يغطي المكتب الحديدي الصغير الذي يتوسط المخفر، وفوقه ثمة سجل كبير كتب عليه بخط عصبي سجل الموتى المجهولين وأرقامهم، وفي وسط السجل قلم جاف، شرعت بإشعال الضوء ومسح الغبار، ودفعت السجل جانباً، مسحت الكرسي الخشبي، وحين جلست عليه وجدت أن المكتب يحتوي على جرار واحد، فتحته فوجدت سجلاً ثانياً كتب عليه «روزنامة حارس الموتى»، أغلقت الجرار ورحت أنظر من الشباك ليمين المخفر فوجدت جداراً يرتفع إلى مترين، ثم يهبط الطول تدريجياً ليصل إلى متر عبارة عن سياج، وعلى واجهة الجدار لافتة خشبية كتب عليها مقبرة الحراس، في داخل هذه الأرض المسيجة ثمة ثلاثة قبور متجاورة بشكل أفقي، وتتوسط الأرض المسيجة تماماً، وفي أعلى القبور حديقة صغيرة مزروعة بالبيبون تمتد على طول القبور، وفي وسطها لافتة كتب عليها حديقة «حارس الوجوه»، وعن يمين القبور الثلاثة حديقة تمتد على طول القبور زرعت فيها زهور نادرة اسمها أزهار الوهن، وفي وسطها لافتة خشبية كتب عليها حديقة «حارس الأسماء»، وعند أسفل القبور تمتد غابة صغيرة من نبات الآس وعلق عليها لافتة كتب عليها حديقة «حارس الانبعاج».

تأملت هذه القبور الثلاثة كيف رصفت بدقة متساوية في الطول والعرض، وعليها شواهد حجرية نقشت بنفس الخط واللون، كانت معزولة تماماً، وحين تخترقها عيونك تحس أنك تُخوّضُ روحك في مياه كثيفة، وتحسّ أنك تنحدر نحو أفول واسع يتيح لك رصد عالم من العزلة، وتتلقف روحك أبواباً تُرتج خلفك بخفّة ماهرة، وينطلق لسانك فيها على الداخل، ولا تمتلك إلا أن تبكي وتغسل الظمأ الوحشي العاصف بك.

انتظرت بشغف وفضول أن تفرغ المقبرة من مرتاديها وزوارها لأفتح روزنامة الموتى، كنت أشعر أني مثل صبي يدخل غابة من الألعاب، وتتاح له كل الأمنيات. فتحت الباب ودخلت ثم رتجته خلفي بعد أن تأكدت من أن المقبرة الآن خالية تماماً إلا مني، فتحت الدرج وأخرجت سجل روزنامة الموتى، وضعته أمامي وجلست، كان السجل مقسماً إلى ثلاثة أقسام، وقد طويت أوراقاً على شكل مثلث لتكون فاصلة سميكة بين كل فصل وآخر، في الورقة الأولى كتب بخط كبير نسبياً **(مدوّنة حارس الوجوه في مقبرة التلفزيون من يوم السبت الموافق 1940/4/5 وحتى ينكسر وجهي).**

في الصفحة الثانية كتب في الأعلى اقتباسات روزنامة الوجوه يقال إنه في يوم ما

(حفر فِي مَوضِع بِالْيمن فَوجدَ فِيهِ سريرين
مضبَّبين بِالذَّهَب عَلَيْهِمَا امْرَأَتَانِ فِي حُلَل

منســوجة بِالذَّهَــب عِنْــد رَأس إِحْدَاهمَـــا لوح مَكْتُوب: أَنا حُبَّى بنت تُبَّع القَيْل، إِذْ لا قيل إِلّا الله، مُتنا فِي زمَان هَيْدٍ، مَاتَ فِيهِ اثْنَا عشرَ ألفاً فلجأنا إِلى هَذَا الشِّعب أَن يجيرَنا من الْمَوْت فَلم يُجِرْنا، وَلَا نشْرك بِاللَّه شَيْئاً).

(الكلبي)

في الصفحة الثانية كتب عنوان بخط كبير (مقاطع منهوشة)

(النهش الأول من عام 1940)

حين تسـلّمت في صيف عام 1940 مهمة حراسـة أرض شاسـعة يطوّقها سـياج رمادي كئيب، قيل لي سـتحرس بسـتاناً كبيـراً، لكنه لم يـزرعْ بعد، وعليك أن تزرعـه بثمار خبيئة أحيانـاً وعلنية أحياناً أخرى، اسـمها ثمار الأدمة، بقيت طوال أيـام أحرس العزلة والهواء والتراب والريح، أو بالأحرى كنت أحرس تلك الكلمات التي قيلت لي أن أحرس ثمار الأدمة التي ستنمو بين لحظة وأخرى بين جنبات هذا السياج الرمادي العاصف بالفراغ والصيف والليل.

(النهش الثاني من عام 1950)

جالسـاً على تلك الدرجات الحجرية أنتظر الثمار الخبيئة أن تنمو،

وإذا بسيارة دخلت تحمل فوقها تابوتاً خشبياً، تدخل من البوابة، وبقيت تسير حتى توقفت عند نهاية السياج من الجهة اليسرى، وترجّل منها ثلاثة رجال ببذلات رسمية وسجلات وأوراق رسمية يتطاير منها عطر الحبر الرسمي. انطلقت خلفهم، وحين وصلت إليهم كانوا يُنزِلونَ التابوت على الأرض، تقدم إليّ أحدهم وسلّمني ورقة من بلدية الموصل تطلب مني السماح بدفن الجثة في الأرض التي سميت بين قوسين (مقبرة التلفزيون). إذاً كانت هذه الثمار الخبيئة هي الجثث التي ينهشها الوجود ويتركها نهباً لنهايات مشرعة للخوف والعطش والبرد، ثم وصلت جوقة من العمال وشرعوا بحفر قبر، وفُتح صندوق السيارة وأنزِلت منه لافتة حديدية كتب عليها مدفن حكومي خاص بدار العجزة، تم تثبيتها في الأرض، ثم قاموا بحساب مساحة من الأرض وحدّدوها بأحجار رصفت بعناية، وطلب مني التوقيع على ورقة المَسّاح الذي كان مع الرجال الثلاثة، ووقعت بشكل عاجل على الورقة، بعد أن تم إكمال مراسم الدفن انطلقت السيارة وغادرت جوقة العمال، وبقيت وحدي أمام القبر واللافتة الحديدية، بقيت أنهش ذلك اليوم أشعة الشمس القوية بأسنان مثلجة فقط.

(النهش الثالث والأخير لعام 1960)

سنوات كثيرة مرت وأنا أحرس وأراقب الثمار الخبيئة، سنوات جافة عبرت فوقي وتجاوزتني، شاهدت فيها السياج الرمادي يسقط ويتعرض للتحطيم والسرقة.. سنوات مرت شاهدت فيها جنرالات

الحروب المبعوجة والمتعاقبة يوسّدون في صدوع الأرض بصمت، أبصرت أفراداً صعاليك يدفنون وتبقى أحلامهم تحلّق فوق شواهد قبورهم، وتقبرُ معهم ليالي البرد والكلمات المعقوفة وأصوات الأنهر البعيدة، كانت هناك قبور كثيرة في كل ليلة تشتعل بالوجوه، وكأن السماء تمطر وجوهاً تهبط على شواهد القبور، وتأخذ بسرد حكايات الزوجات والأولاد والقتلة الكبار والرصاص – الهاطل من كل الجهات – والضجر والحروب المتواصلة لهذه الثمار الخبيثة، شاهدت كيف ينسحب آخر المودعين من القبر، وكيف ينسحب الكلام ثم تطوق القبور بالتراب والأشواك والأحلام والأمنيات الكبرى. أبصرت كيف تغسل الأمطار آثار وجوه الزائرين للقبور كل يوم.

انتهت الصفحة بهذا المقطع الختامي، وظهرت الورقة الفاصلة على شكل مثلث مطوي بقوة، وكتب عليها مدوّنة حارس الأسماء، فضلت أن أقرأ مدوّنة حارس الأسماء في وقت لاحق. أغلقت الروزنامة ورجعت لتفاصيل المخفر، كان الليل قد انتصف، نهضت متثاقلاً من الكرسي، وشعرت أني أعبر قنطرة من الوجوه المرصوفة على رخام موصلي صقيل، كانت غابة من الوجوه الحجرية تحتشد عليها، لا أعرف لماذا استدعت ذاكرتي في تلك اللحظات صور القابلات وهن يسحبن الأطفال ساعة الولادة، ثم ارتفع من حولي صوت بكاء جماعي بقي يرتفع في رأسي، حاولت إبعاد غابة الوجوه عن مخيلتي، لكنها صارت أكثر حضوراً وتجسيماً وبقيت صور القابلات وهن ينفضن أيديهن من الماء الساخن، كانت أسماؤهم تحلّق

في تلك الغرف الليلية التي تتم فيها الولادة.. أسماء تتطاير يميناً ويساراً ودعوات وتراتيل متلاحقة وبكاء مخنوق، وألم عميق يوغل في تلك الأجساد الصغيرة الطرية كانت تلك الصور ترتسم في مخيلتي مع تنويمات تتسرب لآذان الأطفال الجدد لتخرق صمت الليالي الطويلة التي تغوص فيها القابلات، بقيت صور القابلات تتناوب في مخيلتي وهن يغرقن في بحر من الوجوه والأسماء، كانت أسماء الأطفال تصعد وتنزل بمخيلتي مع صور وأصوات البكاء الأول كأنه ينفض عنه العزلة، ويخترق حيزاً يجربه بالصوت.. حاولت سحب رأسي من ذلك الطقس، لكن دون جدوى، شعرت أني أغرق في مياه الأجساد والأسماء والأصوات الأولى.

لا أعرف كم مضى عليّ بالضبط حين قرأت روزنامة الموتى، شهور كثيرة مرت حين قرأت مدوّنة (حارس الوجوه).

ترددت في إكمال قراءة روزنامة الموتى، لكن فضولي سحبني من جديد وسار بي حتى أجلسني إليها في المساء، وبعد أن غادر الزوار، وأغلقت البوابة الحديدية، ودخلت للمخفر وفتحت الدرج الحديدي، أخرجت الروزنامة وفتحتها على الجزء الثاني الخاص بمدوّنة (حارس الأسماء) في أول ورقة كتب بخط كبير نسبياً في وسط الصفحة:

(اقتباسات هاربة من أفواه الأنهار)

(وَرُوِيَ أنكَ رأيتَ الموتَ/ وكانَ عليه من جلودِ

الموتى ثوبٌ كَمِثلِ زَرَدٍ هائلٍ/ وفي كتِفهِ سُبحةٌ عظيمةٌ مِن جماجمَ كَمِثلِ الحصى/ وحولَ خصرهِ حزامٌ فيه سبعون سلاحاً/ وفوقَ رأسهِ خوذةٌ كأنّها الأرضُ فيها ريشةٌ سوداءُ/ وكان يلفّهُ ضبابٌ أبيضُ مُسوَدٌّ، مُصفَرٌّ ومُحمَرٌّ تَتَمرأى فيه أطيافٌ لا عَدَّ لها)

رعد فاضل

وفي الصفحة الثانية وفي وسطها كتب عنوان صغير:

(الاسم الأول لعام 1970)

تسلّمت عملي الجديد بعد وفاة الحارس الأول للمقبرة، وعرفت أنـي الحارس الثاني لهذه المقبرة المترامية الأطراف، حدث هذا في عام 1970 بعد أن تسلمت العهدة من الموظف الحكومي الذي غادرني بسرعة حينها، بقيت وحدي ثم دخلت مخفر الحراسة، واكتشفت وجود روزنامة الموتى في الدّرج الحديدي، وقررت أن أدوّن فيها بعض الملاحظ الخاصة بي كحارس للأسماء.

كنت قبل التحاقي بهذا العمل أحدّق في الوجوه، وكنت إلى عهد قريب جداً أتخيّل الناس مجرد وجوه... وجوه عابرة ليلاً نهاراً.. وجوه قشرية لملوك وغزاة كنت أقَسّمُ الوجوه لقسمين، وجوه للملوك ووجوه

للغزاة، وجوه الملوك تكون صاحبة خطوات حجرية ثقيلة ودموية ومحشوّة بالخراب والتقاطعات الحادة، وكنت أتصور أن الملوك إذا ابتسموا ستتكسر وجوههم حتماً، أما وجوه الغزاة فكانت وجوهاً قشرية متكلّسة؛ لكنها تمتلك القدرة على الابتسام دون أن تتكسر، وأما من هو خارج تصنيف الملوك والغزاة فقد تخيلتُهم يركضون حفاة نحو غرفة فيها وجوه قديمة محتشدة ومرصوفة بشكل دائري، ثم تتحلل وجوههم فيها بمجرد دخولها لتتحول إلى أخاديد دائرية تنسكب منها نقوش ترتسم على الأرض.

(الاسم الثاني لعام 1980)

في العشرية الثانية لي في حراسة المقبرة، توسعت فيها وصار فيها شبكة طرق تآكلت فيما بعد بسرعة كبيرة، وبعض القبور قد شيّد فوقها بوابات حديدية لحراسة الجثث من الانتقام والسرقة ونبش الحيوانات، ولحراسة أحلام الموتى أيضاً، ربما في تلك العشرية الثانية نشبت حرب تواصلت سنوات عديدة، كبر معها الصبية، وشاخت شواهد القبور، وتحطم بعضها وغار بعضها الآخر في أعماق الأرض.

كانت هناك حركة دائبة ليلاً ونهاراً، تدخل سيارات محملة بالتوابيت المقمطة بالأعلام، كانت تلك العشرية تغوص في الوحل والأرحام، واللون الرمادي صار لوناً شاسعاً يعسكر على بوابة المقبرة، ويحرس عزلتها وعطرها الأبنوسي، أبصرت الكثير من طقوس الدفن الرتيبة، وكنت ألتفت كل مرة لأبصر الدفانين والمدفون، وهم لائذون في تلك

الشقوق الكبيرة التي كنت أتخيّلها شقوقاً كبيرة تنهض من الأرض لتبتلع الجميع، ثم تغطّ في الأرض وتغوص في وحل لزج جداً، وحين يرحل الجميع كنت أبصر حلقات متقاطعة تتداخل فيها شبكة من الأسماء والأمكنة كلها تغرق في بحر من الخطوات التي تتوقف رويداً رويداً، ثم يهبط صخب الحياة ويختفي في بركة الأسماء التي غطست في المقبرة.

(الاسم الثالث لعام 1990)

في العشرية الثالثة شيدت قناطر حجرية فوق أكتاف الوديان، وأعيد فيها إكساء الطرق بالأسفلت، وتداخلت حلقات الزمان مع بعضها، وتشعبت الأسماء، ونمت الأشجار فوق بعض القبور. كنت في كل يوم أخصّص ثلاث ساعات لإعادة اكتشاف المقبرة، وخلال تجوالي كنت أسمع دوماً تنويمات الأمهات تحرس القبور، رغم غيابهن الطويل عن زيارة المقبرة، كانت التنويمات تشق العزلة، وتعيد حراثة الصمت، وتقشر الأيام والليالي والفصول المتعاقبة على القبور، كانت المقبرة تغطس فيها في كل ليلة في بحيرة الأسماء، وتنعكس صورتها في تلك الأعماق الوحشية الصاخبة، وهناك كانت أعناق الراقدين تشرئب كل ليلة وتنهض من شقوقها الأرضية، وتتجول في تلك البحيرة التي تحولت فيما بعد إلى موشور عملاق تنعكس فيه، صور، ووجوه، وأسماء، وأخاديد، وخواتم، وشرفات حجرية من الفرش الموصلي، وخوذ مثقوبة، تتدحرج بعيداً عن

مســـارات الحـــروب، هكذا انداحت ثلاث عشـــريات مـــن زمني بعيداً عني وقريباً من الأرض ذات الشقوق والصدوع، لتترنح بحيرة زمني الموشـــورية، وتتوارى وهي تتفتت في جريان الوجوه والأسماء، لقد تابعت جميع شواهد القبور المنحوتة على الفَرش الموصلي، وكان من بينها شواهد احتفظت لنفسها بالعتاقة، وبقيت سيرة أصحابها تقطر في رأسي كل ليلة بصمت، عابرة مسافة الوهم الحياتي.

(هنا يرقد أسد الحروب المنسية: الآس بن خالد، ولد عام 1947).

(قبـــر المظلومـــة: تنويمـــة أحمد علي ســـليلة الأنهـــار والبحيرات الساكنة).

(قبر الغريب القادم من شرفة الحروب، توفي عام 1943)

(الشـــهيد «مجهول»، لكنه كان يحمل الرقم – 153 – أثناء اشتعال الحرب الثانية).

(هنـــا يرقد قتيـــل الليل والأخاديد الســـفلية عـــاش 30 عاماً مترعة بالخطوات الحافية).

(هذا قبر الشـــاعر عبد الباقي العمري الملقب بـ«الأخرس»، دون تاريخ، لأن الشـــعراء يُحلّقـــونَ في بحيرات لازمنيـــة خارج مدارات الرياح).

(الشـــهيد: مروان نزار جرت ســـيرته في الهجيـــر والظلام لتقتلع أسماء القتلة الكبار).

أغلقت الروزنامة واستسلمت للنوم العميق، بعد أن أنهيت يوميات حارس الأسماء بقيت أياماً طويلة بعدها والأسماء تتبعثر وتتداخل الحروف في موشور زمني، حاولت مراراً أن أبعد رأسي عن هذه التداعيات العاصفة؛ لكن لم أفلح، بقيت الأسماء متبوعة بالوجوه تمطر في مخيلتي مصحوبة بالتنويمات والبكاء الخافت وصخب الحياة، مرت أيام طويلة حتى استطعت مواصلة قراءة روزنامة الموتى، كان التطابق الكبير بين إحساسي الطفولي بأن الموت يعني انبعاجاً مقلوباً وبين اسم الحارس الثالث للمقبرة حين اختار أن يسمي نفسه حارس الانبعاج، يا ترى أي فكرة كانت تجول في خاطره، وأي إحساس قاده مثلي ليختار اسم الانبعاج؟ وكيف تطابق إحساسه مع إحساسي هل هو فعل الموت والزمن وجريانه السرمدي في مخيلاتنا؟ هل هو الأثر الناتج عن شكل القبر وهو يتحول لانبعاج، لكنه انبعاج مقلوب؟ شعرت بصلة تربطني بهذا الحارس مثل خيط المشيمة المغسول بالأدمة البشرية، وربما يكون الحارس الأول هو جد الحارس الثالث، خاصة أن غياب الاسم الثلاثي جعلني أحاول أن أثبت أن هؤلاء الحراس الثلاثة هم الجد، والأب، والابن، فيكون تسلسل الألقاب هو الاسم الثلاثي للحراس، أو أنهم جميعاً حارس واحد، كانت فكرة حراسة الموتى تدفعه إلى تخيل أن الموت هو غياب الوجه، ثم يتبعه غياب الاسم، ثم يتشكل الانبعاج المقلوب من خلال شكل القبر، وسيرة حارس الانبعاج كانت رغم قصرها تتطابق بشكل كبير مع مشاهداتي واستشعاري للمقبرة وسكانها، إذ إنه دشّن أول نص له في روزنامة الموتى بهذا الشكل ودون أي اقتباس.

(الانبعاج الأول لعام 2000)

في كل شـهر من كل عام، وفي اليوم الرابع من كل شـهر، كانت هنـاك امرأة تلبس عبـاءة بيضاء تدخل المقبرة في سـاعات الظهيرة الأولى، وتسير بمحاذاة القبور والسياج الرمادي المتهدّم، وهي تنادي بصوت مرتفع:

«ولدي وجه

نسيت النجوم أن تحرثه

يوم ولادته

فصار فوق سقف الموت

ولدي معلق بين أجمات الصبر والغياب

فنهشته الحروب

وصار رقماً فلكياً في

سلسال صنّاع الخوذ

والبزات العسكرية

لكل النساء قبور تأوي إليها الأمهات

إلا أنا

أيها الاسم المحفور على شاهدة قلبي

أين أنت

أيها المبعثر بين الحروب

ونزوات المياه

يا وجهاً غسلته مياه الأرحام وخضرة الأبنوس

ها هي صرخات الأرحام المتشقّقة تيبست

ولم تحضر بعد

يا وجهاً تناثر في صدى التنويمات وأحلام القابلات

ها هي القيعان والشقوق والصدوع تناديك

اترك رحالك الغائرة في زحمة الأفول

يا ولداً بقي دون قبر ووجه

يجمع حروفه..

ها أنا أجمع لك الأصوات ودفاترك الملونة

لتحطّ فيها مثل مسافر أنهكته الخطوات

وتعاقب الفصول..

تعال... تعال

فلكل النساء قبور تُدفنُ فيها أرحامها إلا أنا بقيت

وحيدة مثل خطوة مبتورة..

وبقيت انبعاجاً يحتاج للردم

ولن يردمه عويل الحروب وخرابها الفاحش

ولن أُردم يوماً.. إلا بك

تعال... تعال

فقابلتك المسنة لا تزال تنتظر صوتك

ولا يهمها إن كان في صدى الموشور حتى

أو صدى الأرحام وخرائبها وريح الأبنوس».

(الانبعاج الثاني لعام 2010)

صار البرد يتسرب لعظامي بشكل متواصل، ويكتسح قوتي وطاقتي على التحمل، وحدث أن مرضتُ في ذلك اليوم الشتائي القارس، وكنت مصراً على الحضور إلى المقبرة للقيام بمهمة الحراسة المعتادة، أخذت أرتجف والحمى تلفح جسمي دون رحمة، فدخلت في مخفر الحراسة وألقيت بنفسي على الكرسي، والتحفت بغطاء سميك، ولم أشعر إلا وأنا أدخل بوابة من بوابات النعاس، فإذا بي أدخل مقبرة الحراس التي خلف مخفر الحراسة، فوجدت

حارس الوجوه وحارس الأسماء يجلسان بعضهما لبعض ويتسامران، ثم رحّبا بي وأجلساني بقربهما، كانت الشمس تقترب من الأفول، فإذا بضوء قمري يجتاح الجلسة مصحوباً بدفء يطوق جلستنا، كان حارس الوجوه يبتسم بشكل خفيف، بينما حارس الأسماء كان منهمكاً بترتيب بعض الأحجار حول مكان الجلوس، اقترب مني حارس الوجوه وقال لي بصوت منخفض، أردت أن أخبرك أني نسيت تدوين ملاحظة مهمة في روزنامة الموتى، فقلت له أنا أسمعك جيداً، ويمكن لي أن أكتبها نيابة عنك، فقال كما تحب، لكن أفضّل أن تسمعها فقط دون أن تدوّنها، فوافقت فأخذ يروي وقال:

في يوم صيفي عاصف بالقيظ دخلت شاحنة عسكرية كبيرة وتوقفت في الأرض الحكومية المخصصة للمجهولين وأبناء السبيل، وترجل منها بعض الجنود، وقاموا بإنزال أكياس سودٍ بلاستيكية كبيرة، وكانت تبلغ 13 كيساً، وشرعوا بفتح الأكياس السود، وأخرجوا منها جثثاً مغلّفة بأكياس بلاستيكية بيضٍ شفافة، كانت الأكياس مملوءة بسوائل تفوح رائحتها، ولم أعرف طبيعة تلك المادة التي تحفظ الجثث، لكن رائحتها كانت كريهة وانتشرت في أرجاء المقبرة بسرعة كبيرة، وبعدها شرعت مجموعة من العمال التحقت بهم بحفر شق طولي كبير، وتم إنزال الجثث السابحة في تلك المادة الحافظة ودفنها بذلك الشق الطولي، كلها دفعة واحدة، ثم ردم الشق الطولي وأهيل الكثير من التراب فوقها، ثم ثبتت لافتة حديدية كتب عليها مدفن حكومي خاص بالأرقام (1578 – 1709 – 15643 – 124534

– 778654 – 656778 – 76895 – 56742 – 786909 – 980700 – 877900 – 76511 – 87555)، ثم رحل الجنود وبقيت أنا قبالة ذلك الشق ساعة كاملة، ثم حين حل المساء دخلت في المخفر الخاص بالحارس، وبقيت أنظر إلى ذلك الشق الطولي فإذا بي أرى حلقة ضوئية من الأرقام تسبح في سائل لزج، ثم تحولت الأرقام إلى وجوه، ثم تحولت إلى أسماء، ثم تلاشت في عتمة المساء. وبمجرد ما أكمل حارس الوجوه الحكاية نهض واختفى، انتبهت لحارس الأسماء فإذا به يجلس في مكان حارس الوجوه، ويقترب مني ويهمس لي أنه نسي أيضاً تدوين ملاحظة في روزنامة الموتى، ولا بد لي أن أسمعها؛ كي يخلي ذمّته، فقلت له أنا أسمعك، فقال حارس الأسماء:

حين تسلّمت مهمة حراسة هذه الأسماء كنت أسمع كلاماً من بعض سكان هذه المدينة الكبار بالسن منهم خاصة، أن تحت هذه المقبرة في الأصل ثمة أضواء كانت تظهر وتختفي بين مدة وأخرى، وتطاير الخبر في المدينة، وصار بعض الناس ينتظرون ظهور هذه الأضواء الغريبة الراقصة فوق هذه المساحة البكر من الأرض، وبعد مدة حدث أن اختفت الأضواء ولم تعد تظهر، وصار يُرى فيها انعكاس موشوري عملاق يحيط بالأرض هذه من كل أركانها، ثم تتلون الأشعة المجتمعة في الموشور وتتشكل بحيرة بلورية من الوجوه والأسماء، وتتراقص بخفة غريبة كاسرة الأشعة المنعكسة على الأرض والخارجة من عمق الموشور، وهكذا حتى تلاشت واختفت في قرارة الأرض هذه، ويقال إنها ستعاود الظهور بعد جوائح وانقلابات كونية، ثم توقف

الحارس ونهض من مكانه وودعني وهو يبتسم، ثم اختفى من أمامي بلمح البصر، بعد هذا شعرت أني انتبهت من غفلة النعاس، واكتشفت أن الحمى ارتفعت كثيراً، وحرارتي صارت جمرة تحرق أنفاسي، حاولت النهوض لاستنشاق بعض الهواء خارج مخفر الحراسة فتحت الباب وتركته مفتوحاً وأخذت أسير... وأسير.. فقط.

(الانبعاج الثالث)

منذ أن توليت حراسة هذه الثمار الراقدة في الانبعاجات، كانت هناك رؤيا تراودني كل ليلة، وتعيد تكرار نفسها، وكنت أرى فيها أن الوجوه والأسماء والانبعاجات المقلوبة ووجوه القابلات وتقاطعات الأزمنة كلها تتحلل وتجري نحو موشور العالم الذي بقي متوهجاً بالتفاصيل الحادة والعابسة وهي تلوذ بالعزلة، وتنطفئ في قرارة الموشور العاكس، وتترنح من خلفها الأسماء والعناوين، وتتبعثر شواهد القبور، تناثرت بقايا تلك الصور يتبعها صخب الحياة، وأخذت تخفت رويداً رويداً، وتقود خطواتها لائذة بالتضاؤل الكثيف، وتندس في الشقوق والصدوع والنتوءات الصخرية والأخاديد السفلية.. يحتشد الموشور العاكس الآن بالكثير من الصور التي صارت تتحلل وتندمج في أفق الكائنات وحيواتها الصاخبة، كانت الصور تتحلل بسرعة فادحة عابرة حدود الزمن الأرضي لتتجاوزه وتحلّق في آماد سديمية بعيدة، وتتوارى في الهناك الغاطس والغائر، كنت أعرف أني الوحيد في هذا التحلل العاصف بالأسماء والوجوه والحيوات الهاربة

من صخب الحياة لتنطفئ في الشقوق، وتسيل سيرتها وتندلق على أعتاب الأزمنة الموشورية الساكنة والمقلوبة في روزنامة الموتى...

بهذه الكلمات انتهت روزنامة الموتى، نهضت من مكاني وخرجت من المخفر لأستنشق بعض الهواء المنعش، وأخذت أتذكر الأيام الأولى لي في هذه المقبرة، وكيف تسارعت خطوات الزمن من حولي، وتغيّر كل شيء وكبر وشاخ، كانت الأحوال تتغير وتتبدل في الخارج، وتنتهي حروب وتشتعل حروب أخرى، وكانت حينها حرب كونية قد اشتعلت ولم تكن تحمل تلك الحرب اسماً بعد.

بقيت رؤيا حارس الانبعاج محلّقة في رأسي، وهي ترسم مسارات وحشية لهذه المقبرة، وفي ذلك اليوم كان القصف الجوي عنيفاً جداً، وحدث أن وصلت لليوم الذي أُغلقت فيه المقبرة، وتوقفت سيرتها المتحركة لتتحطم معها القناطر الحجرية والشواهد المصنوعة من الفرش الموصلي الصقيل، تلاشت في فضاء بين الأرض والسماء، حين سقطت قنابل فراغية كثيرة على المقبرة، وشتّتت تفاصيلها الآهلة بالطرق وأقفاص الحديد والخواتم والنباتات والتنويمات والأسماء والوجوه وأصوات البكاء الذي ما زال ينبعث في صدى الموشور العاكس لتلك الأزمنة المتجمدة، والتي تحولت إلى صورة جامدة أخذت تغرق في بحيرة الموشور.

كان القصف كثيفاً في ذلك اليوم الجحيمي الهاطل بالصواريخ والقصف العشوائي العنيف، واستبيحت فيه المدينة وسِير الحفاة

الراقدين في المقبرة، أخذت أركض وأركض بعيداً تاركاً خلفي مساحة الانبعاج تلك، بقيت أركض حتى صرت على أعتاب الأحياء المجاورة للمقبرة، وجلست أنظر للقصف الهاطل، وأسمع الأصوات التي يخلّفها القصف، كانت الحجارة والتراب ترتفع نحو الأعلى القصي، وتتداخل بالغبار والهواء، ثم تمتزج الحجارة بشواهد القبور المحطمة، وهي تتبعثر في كل مكان في الأعلى، ثم تهبط على الأرض، كان القصف بصواريخ كثيرة انقلبت معه تربة المقبرة، وتفتحت انبعاجات الأرض، وتفتحت معه القبور بكل قوة، واختلطت الأكفان البالية بالشواهد والفرش الموصلي والرخام الصقيل، كانت الأصوات تنداح في رأسي وتتداخل، والغبار يطوق المقبرة؛ لكنني استطعت أن أميز تلك التفاصيل وهي تمتزج ببعضها البعض، كنت واثقاً أني شاهدت بحيرة الأسماء والوجوه والانبعاجات تخرج محلقة في الفضاء، تتبعها الطرق التي ارتفعت بكليتها النسيمية؛ لتقلب في الأعلى وتهبط على الأرض، وتتهاوى وتتبعثر وتضيع معها مسارب الخطوات المحفورة في أخاديد الأرض والوجوه، ارتفعت حدّة القصف الهاطل على المقبرة، فتصاعدت معه آخر الأعماق الغاطسة في اللحود الأرضية، تصاعدت العظام وهي تتهشّم وتتكسّر وتتحطّم، واندس فيها البارود الأسود كاسياً سيرتها البيضاء بالسواد، وتفتقت أوشام الزائر الأخير للوجوه والأسماء، وعصفت أصوات الانفجارات الكونية بسكان مقبرة التلفزيون، ثم اختفت الطائرات وغاب أزيزها المفجع، ركضت راجعاً إلى مكان القصف لأجده أرضاً محروثة

بالخراب والفراغ والتجاويف الموحشة، بقيت أركض حتى وصلت لمنتصف المقبرة، كنت أسمع صوتاً نازلاً من الأعلى، رفعت رأسي لأجد موشور العالم الزجاجي العاكس بين الأرض والسماء محلقاً في تلك الأعالي، محملاً بصورة كبيرة تنعكس فيها الأصوات والوجوه والأسماء وأصوات القابلات وتنويمات الأمهات الرابضة قرب مهود الأطفال، كانت الصورة تتوسع مثل بحيرة تفيض وتفيض وتتحلل فيها كل الخطوات وشواهد القبور المنحوتة بالأسماء والعناوين وصخب الحياة، بقيت أنظر إلى بحيرة الموشور العاكسة وهي تُقلبُ الوجوه والصور، ثم تغوص وتسقط في قعر البحيرة، وترتفع مكانها صور أخرى تتقلب وهي تمسك بجريان الأزمنة، وتثبته بشكل صارم، وتترك الأمكنة تتحطم وتتهشّم، لائذة بالغرق ثم تتوارى في فسحة سماوية تجري فيها الوجوه والأسماء، والصور، والتنويمات، دون أن تتحلل أو تتضاءل أحجامها المنعكسة في هجير الحروب.

المعولُ

ارتعش المعول الذي حفر به أبي قبراً مضيئاً لأخي الكبير، كلما مررت بالقرب منه أحسست أنه لن يقوى على حفر قبر آخر، فقد أصبح صدئاً. هذه العتبات التي داستها أقدامي وألفت اعتصار شتائم أبي، الذي لم يكن يتردد في توجيه أسئلته البليدة التي ذابت في داخلي مرارة، وجعلتني أشيح بوجهي عن أمي، كلما شاهدت أبي. ذهبت إلى العمل الذي أرغمت على الولوج إليه، عالم كبير من الأحجار والتراب التي نقلت عدوى التصحر إلى قلبي، ذرّات الغبار ظِلّ أخي الذي كنت أتكئ عليه، اليوم ورشة العمل مكتظة بوجبة جديدة من الأحجار التي جلبوها من (H3)، حجارة سود مثيرة للدهشة والقلق معاً، قال صاحب العمل: إن هذه الأحجار الكبيرة.. جلبناها لكبير الجبل الذي أوصى بأن يكون قبره مبنياً منها. همس لي صديق يشاركني الوقوف على

آلة التقطيع. لقد قرأت مرة.. عن أقوام عرفوا بشـذوذهم! فمُسخوا إلى حجارة سـودٍ..، وأنا لا أشك في أن هذه الأحجار هي تلك الأقوام! لذا ليسـت لي رغبة بتقطيع هذه الأجسـاد! سأغادر الورشة وأرجوك أن تكـون طيباً مع هؤلاء. قلت في نفسـي إنها خرافـات لا جدوى منها، أمعنت النظر فيها، لكنها لم تكن سـوى ثلاثة أحجار كبيرة توحي لي برغبة في الإسـراع بتقطيعها، حملت آلة الرفع واحدة منها ووضعتها فوق المسـطبة المعدّة للتقطيع، بدأ قرص التقطيع بالدوران، ما إن بدأ الانقسـام حتى انبعـث غبار لم أرَ مثيلاً له، كان القرص يسـير ببطء غريب أثار في داخلي نوعاً من القلق، وبعد جهد انتهيت من شـطرها إلى نصفين متماثلين، ربطت آلة السـحب على أحد الأنصاف وجذبته بعيـداً عن النصف الآخر، انتبهت إلى يدي فإذا هي متضمّخة بالغبار والدم.. لم يكن هناك شـيء في جسـدي يؤلمنـي، إلا جرح قديم خطّه معول أبي بقسوة في ذراعي ذات يوم، لم يكن ينزف.. تذكرت ما قاله صديقي.. رفقاً بهذه الأجسـاد.. نظرت إلى أسفل المصطبة الحديدية. كان الدم ينسـاح عليها.. دم يحمل ذرات سوداً.. تأكدت أنه ينحدر من الحجارة، اقتربت منها أكثر، ومددت رأسـي بالقرب من قلبها.. كانت تمتلـك كمّاً هائلاً من الشـرايين والأوردة التي أخـذت تتلوّى كأفاعٍ، كان الدم ينفد شـيئاً فشـيئاً من قلبهـا، انتبهت للنصـف الآخر، كانت تسـتقر بداخله الكثير من الأيدي المشعرة المبتورة من المرفق! بدأت تتحرك وتتلون بالأزرق. فبدت طازجة جداً.. شـعرت بخوف يستبيح جسـدي المنهك.. لأن سباباتها تشـير إليّ وتتوقف عن الحركة واحدة

تلو الأخرى.. توقفت الأيدي تماماً ـ فجأة ـ انسلت من هذا الكم الهائل من الأذرع ثلاث أيدٍ وسقطت على المصطبة. وبدأت تزحف نحوي.. تراجعت إلى الوراء قليلاً.. بعدها اختفت تاركة خلفها بعضاً من البقع السود. أشرت إلى العامل الذي يتولّى مرحلة ما بعد التقطيع أن يسحب النصفين إلى مصطبته. نما شوق ممزوج بالخوف والترقب في داخلي إلى معرفة ماذا تحوي هذه الحجارة الأخرى.. حملت آلة الرفع الحجارة الثانية ووضعتها فوق محل القطع، توغل القرص في داخلها، وما إن وصل إلى نهايتها حتى سمعت صراخ نساء ينبعث من داخلها، أسرعت إلى ربط السلاسل حول الجزء الأيسر، وبسرعة سحبت عتلة السحب وأزحتها إلى الوراء، كي يتسنى لي أن أرى ماذا تحوي هذه الأخرى.. كانت شفة كبيرة خضراء تنغلق فينقطع الصراخ، ثم ينبعث منها أنين مصحوب بالرأفة.. وضعت يدي فوقها كانت ساخنة وطرية، أحدثت في جسدي نوعاً من الدفء.. تلاقت الشفتان في عناق دائم، اقتربت من النصف الآخر بدأت تتكون في داخلها سيقان ملساء ناعمة دققت النظر فيها، كان هناك حاجز زجاجي يفصل هذه السيقان عن الهواء، غامرت بوضع يدي على الزجاج فاختفى كل شيء.. عاد العامل وسحب الحجارة الضخمة بقوة، وقال: أتترفق بهؤلاء؟!

قلت: أرجوك. راقبته وهو يقطعها بقسوة، لم يبدُ عليه أنه يرى شيئاً.. وضعت الصخرة الأخيرة فوق المصطبة.. ضغطت على زر التشغيل وبدأ القرص يتوغل فيها محدثاً صوتاً غريباً، وما إن وصل

إلـى نهايتهـا – فجأة – اجتاحت قنـاع الغبار رائحـة كريهة وغطت المـكان برائحة نتنة انبعثـت من جوفها.. كانت تتغيـر في كل لحظة أحسسـت أنهـا تحمل بيـن طياتها رائحة شـيء آخر لا بدّ أن أسـتعد الآن لعالـم آخـر، يخفي في جعبته رغبة، أقسـى من القرص، وأشـد مـن غبار غرفتـي. اقتربت محدقاً فيهـا، لم يكن فيهـا ما تصورت، لقـد كانت معبأة بأجسـاد صلبة تكـون في البدء ثم تتحول إلى سـائل وأشـكال أخرى عبارة عن كتل هلامية، وبعد أن تسـقط على بعضها الأخـرى تتحول إلـى بقع صلبة، وكانت تفرز شـيئاً كريهاً مثل طفل أسـود اللون، توقفت كلها عن حركتها الدائرية، لكن الرائحة الكريهة ما زالت تخيّم على المكان، بدأ الأطفال السود يختفون تدريجياً، وبعد برهة اختفت جميعها، تاركة علامة تعجب، نحتتها بسرعة فائقة داخل هذا النصف، وتحتها كتب (سـنقترب منك أكثر)، الرائحة بدأت تخنق أنفاسـي وتجبرني علـى أن أرحل من هنا، لكنـي واصلت إصراري علـى أن أعرف ماذا تحمل الحجارة الأخيرة تناهى إلى سـمعي نباح كلاب، بات يتسـلل إلى داخلي، قاومتها ونظرت مباشرة إلى النصف الأخير، كانت هناك ثلاثة كلاب مستلقية على بطونها، وبعد أن استقر بصري عليها، توقفت عن النباح، وعيونها تستقر وتتوقف شيئاً فشيئاً عن الحركة.

بـدت لي أليفـة نوعاً ما، صدر صوت مـن أعماقها، توغل بعدها اثنان داخل الصخرة واختفيا، ربّت أحدٌ ما على كتفي، التفتّ فاكتشفت أني عاجز عن النطق! فقال: رفقاً بهذه الأجسـاد.. واستعدّ أنت أيضاً.

واختفـى في غبار أسـود غلّف المكان، وبينما كنت أفكر في هذه المعادلة، سمعت نباحاً قوياً! فخرج الكلب الوحيد الذي بقي داخل الصخرة ولكن جسده قد تغير إلى صورة شيء أعرفه جيداً بجسد كلب..! استقر الكلب على صدري وأسقطني أرضاً. فوجدت نفسي عاجزاً عن الهرب، فأخذ يلتهم رقبتي، كنت أصرخ، ولكن صوتي كان يختنق في داخلي، أحسست بشلل يسري من أقدامي إلى صدري، وثمة هلوسة قرب رأسي، وثمة شيء غادر جسدي، ليتركني ويستقر في فضاء الورشة وينظر إليّ. تزاحم العمال حول جثتي، وأزاحوا نصف صخرة، كانت مستقرة فوق صدري! صاح أحد العمال: ابتعدوا.. ابتعدوا. بينما جلب أحدهم شرشفاً طويلاً مليئاً بالغبار، وغطوا جسدي وقالوا

معاً: لنحمله إلى أهله وسنقول لهم بأن إحدى الصخور سقطت عليه. حملوني في سيارة قديمة إلى المنزل، ثم وضعوني في غرفة أمي، وبدأ الناس يتوافدون إلى دارنا دون دعوة.. النساء من حولي كنّ يبكين بلا هوادة، هذا الطقس جعل شعوراً بالخوف يتسلل إلى داخلي، فيجعلني أتذكر المعول، كيف نقل عدوى الرغبة إلى أيدي المحيطين بقبر أخي: عندما دفنّاه وتركنا تابوته ينعم بالقبل الملتصقة به، لتحمل له وعدنا بأننا لن ننساه أربعين يوماً فقط، وسنبقى نذكر أوراق دراسته المبللة ببقع الشاي، وطفله الصغير، الذي أصبح شبيهاً به، لقد كبر.. لقد كبر.. ها هو يشير إلى جثتي ويقول لطفلي: لقد مات أبوك.

أنهض بجسدي الأثير.. الظلام بدأ يستبيح حرمة الضوء، وها هو

يقترب أدركت بأن كل شـيء سينتهي قريباً، وهذه السويعات الباقية، نهاية لمسيرة الضنك الذي نخر جسدي، سوف أمضي وأترك الشوارع التـي أدمنت السـير فيها، وبضع دموع ستنشـف مـع بداية الصباح، والثياب السـود سـتعلن الحداد أمامهم فقط، ودّعت أشيائي وغادرت الغرفة التي اعتصرت كبريائي، وحافظت على جراحي من التعرّي، لقد كانت الملاذ الوحيد الذي أسـتطيع أن أقيم فيه طقوسـي الخاصة، اتجهت إلـى باحة الدار، رأيت أبي يدخـل وبصحبته بعض الرجال، كان يحمل قماشـاً أبيـض فأعطاه لامرأة من اللواتـي كن واقفات في الباحـة، وهمـس في أذنها: أسـرعي فالظلام بدأ ينمو، أسـرعت هي لتخيـط منه كفنـاً، يضاهي أكفان البلدة كلّها، سـمعت أبي يقول: أهلاً بك أيها المغسّل.. أدركت أنه هو.. تذكرت الآن كيف أتى ليغسل أخي الكبير، قلت لأبي حينها: لقد شاهدته مراراً ينظر إلى النساء بشراهة، فكيـف تسـمح له أن يغسّـل أخي!! إنـي أكره هذا الرجـل الغامض. فصفعنـي علـى وجهي قائلاً: كيف تشـكّ فيه؟! لقد تولى أبوه غسـل جـدّك، وعندما حملوا جثة أخي، وأدخلوه إلى الحمام رفض المغسّـل أن يسـاعده أحد، أردت أن أسـاعده، فرفض وطردني خارجاً، وقفت سـاعتها قرب الباب وأخذت أبكي وأسـترق السمع حاولت أن أدخل، لكن أبي منعني وصرخ في وجهي: إنه مغسّـل البلدة.. ولا يجرؤ أحد على المسـاس به أيها المعتوه. ولكن هل كان دخوله إلى ورشة العمل نذيراً للموت؟!

تأكدت أنه سوف يدخل بعد قليل ليتولى غسلي، ولا مفر من ذلك،

عدت إلى الغرفة التي كان الجسد مسجى فيها، أمي كانت تصرخ: أبوه كان السبب في موته المبكر. دخل أبي وأخوتي وقال: لقد مات الشر فقط، أفسحن المجال لكي يتولى المغسّل عمله وننتهي من هذه الضجة. صرخت زوجتي، وشدّت شعرها، واحتضنت طفلي الوحيد، وقالت بصوت يدمع: مات أبوك أيها الوحيد. انسحبت النسوة من حولي فاقتربوا وحملوني إلى الحمام، ثم وضعوني على منضدة خشبية، جلبوها من مسجد البلدة، تلك المنضدة التي شاهدت عري البلدة بأكملها، وانسحب الجميع خارجاً. دخل المغسل أولاً وبصحبته رجلان فقال لهما: لا أحتاج إلى وجودكما معي. أخرجهما وأغلق الباب وشاهد جسدي وصدري المهشّم. تأمل جسدي ملياً، فبرقت دمعة على خدّه وقال في سرّه «ما زال شاباً»، مسحها بباطن كفّه وشرع بصبّ الماء، غسّلني بالماء ثلاث مرات، وبدأ يدّلك جسدي بيديه فقط التي نالت منهما رغوة الصابون، بدأ برأسي ثم انتقل إلى ظهري، كان في زاوية الحمام معول، ترددت في حمله، لكنه أصر على أن يموت معي مثل سرّ الحجارة، حملت المعول، وهويت به على رأسه، فسال دمه، لقد كان دماً يحمل ذرات غبار أسود، فصرخت أمي في الخارج، وأقبلت مسرعة نحو الحمام، فتحت الباب بقوة فشاهدت صخرتين ملتصقتين مضرجتين بالسواد.. ومعولاً يحفر في الهواء.

خُلصاءُ المياه

ماركيز يباغت الجميع، يغلق بوابته السحرية العاصفة، ويقرر أن يهب لسانه السحري (/ لـ(قيس عمر)[1] /) ويكتب رسالة يشرح فيها كيف توصل بالصحراء الوحشية والمياه واللسان السحري يقول فيها: إن لساني الذي صار بين يديك الآن هو ليس لساني الحقيقي، بل إني أمتلك لسانين، لكن لم ينتبه أحد يوماً لهذا، وكنت كلما خلوت بنفسي أفتح فمي وأبصر اللسانين معاً، وأنا أدرك

1 – المتن الجواني

(/ قيس عمر / ليس اسم علم أو شخصية تم ذكرها في كتاب الحشرجة، وليس هو التمثال الذي كانت تطوف حوله بعض القبائل في الجاهلية، إنما هو إشارة تم شطبها من مخطوطة (خُلصاء الصحراء)، وقد أورد ابن الجوزاء وهو الناسخ الأول للمخطوطة هذه الجملة، ثم قام بشطبها بشكل عنيف، لكنَّ أثر الشطب بقي على المخطوطة رغم تقادم الزمن وانطماس تفاصيل كثيرة من النص).

أنك ستقول الآن، هل يعقل أن يكون ماركيز قد دفن دون لسان؟ لكن الحقيقة أنَّ لساني الحقيقي الذي ولدت به لا يزال في فمي، وحتى إن حاولت البحث عن الحقيقة لن يصدق أحد، وحتى إن قمت بنبش قبري بعد موتي ستجد لساني في مكانه، ولا أخفيك حين شعرت أني سأرجع قريباً من حيث قدمت إلى أعماق تلك الأرض وحيداً متكوّراً على نفسي، كما كنت في رحم أمي صرت أشعر أن اللسان يتململ ويرغب أن يخرج من فمي، ويغلق بوابة الأساطير الساحرة.. كنت أشعر أيضاً أن لساني الحقيقي صار يشعر بثقل هذا الزائر الذي كان يقطن في فمي.. يـــــــاه يا صديقي كم أنا حزين حقاً؛ لأني سأكتشف نفسي لأول مرة، حقاً هل تدرك معنى أن تكون وحيداً مع لسانك الحقيقي؟ هل تدرك معنى أن أكون وحدي محشوراً في تلك الحفرة في صدع من الأرض أعيد التعرف إلى نفسي بعد أن نسيت اكتشافها؛ لأني كنت أشعر بحرج من هذا اللسان الضيف، ولا أخفيك أيضاً كنت مندهشاً من تلك الطقوس السحرية التي شيّدها اللسان الضيف في الروايات التي رواها عن لساني، أقصد شخصيتي، هل تدرك أي عناء كنت أعيش يا صديقي وأنا أعيش طوال حياتي برفقة ضيف لم أكن أستطيع أن أكون حراً لنفسي دون ذلك اللسان، لن أطيل عليك، لكن أجدني ملزماً أن أبيّن لك أنَّ اللسان وصلني بصحبة رجل خمسيني وقف متجمداً من البرد أمام باب بيتي، وطرق الباب بشكل قوي وبطرقات متتابعة، وكنت أنا حينها أفكر بـ(تاشيا) وكيف أكتب لها أول رسالة ممهورة بالروح، وخرجت لأرى من الطارق، فوجدته

ذلك الرجل الخمسيني، كان يرتدي ملابس غريبة حينها، وفيما بعد اكتشفت أنها ملابس يرتديها أهل الشرق، كان رجلاً عربياً حقاً بكل تفاصيله، سلّمني الرسالة برفقتها لسان سكن فمي بشكل سريع وغريب، لم أدرك كيفيته حتى الآن، وغاب الرجل الخمسيني بشكل سحري وغامض عن بصري، ووجدتني أقف والباب الخشبي تدفعه الريح من خلفي بشكل قوي ليرسل صريراً موحشاً، دخلت إلى البيت بعدها ولزمت السرير بعد أن اجتاحتني حمى جعلتني الازم الفراش شهراً كاملاً، وحين حضر الطبيب قال إنها حمى يسكنها دوار، وهي نادرة تصيب البحارة الذين يشقون بحر العرب فقط، ولا أعرف كيف وصلت إليك هنا؟ إنها غير معدية أيضاً، وبقيت شهراً كاملاً في الفراش تصحبني تاشيا بصوتها البعيد، وهو ينحدر من أعالي التلال والمروج والأمطار، وهكذا يا صديقي بعد ذلك الشهر العاصف بالحمى والدوار اكتشفت تسلل اللسان لفمي، وأني صرت أحمل ضيفاً في جسدي، وعليَّ أن أتكيّف مع هذه الندرة الغريبة.. رحل الرجل العربي القادم من الشرق، وكنت أدرك أن اللسان والرجل الخمسيني سيرجعان إلى الشرق حتماً.

وأنا أدرك أنك تقرأ رسالتي الآن، وأدرك أيضاً أن حقيقة الحكاية صارت بين يديك، وأنا في صدع من هذه الأرض محشور فيه، وكما تعرف فإن روحي تتوق لتلك الفسحة السماوية في الأعالي، وستدرك معي، لكن متأخراً ربما، أن هذا اللسان قادم من صحراء وحشية لم تندلق معالمها على الخرائط بعد.

حامل الرسالة الستيني:

كان يقف في أقصى اليســار رجل /*ســتيني/ ســتيني هنا لا تحيل إلى عمر الســتين عاماً، ولا تحيل أيضاً إلى جيل الستينيات في العراق تحديداً، إنما هو نتوء فــي الظهر يجعل قامة الرجل تميل إلى الانحناء غير الواضح نحو الأمام.* شــاحب الوجه ناتئ العظام في الوجه. يتدثر ببشــرة / *شــاحبة/ وشــاحبة هنا لا تعني مقاربة دلالية للون الأصفر، بل هو شــحوب الدلالة حين تشــتبك بالقارئ، وتجعل الذاكرة تتوقف وتشحب شحوباً أنيقاً، إنه فعل اصطدام لا غير* يجرّ خلفه حلماً بالعودة لأحضــان أســرته التي فارقها منذ زمن موغل فــي عتاقته، ودون أن أســأله عرفت أنه قد مشّــط روحه حتى تكسّــرت أمشــاطه الخشبية / أمشــاط/ تعني مشطاً مستلاً من كومة أمشاط، مشط خشبي وحيد يليق أن يكون معلقاً في ذاكرة حكّاء. كان يقف في أقصى اليسار ينتظرني.. ينتظر أن أطرق ذلك الباب الخشبي الموشوم، ويمسكني متلبساً بحمى البحــث عن الأعمــاق، وفعلاً شــعرت بيده تلمس كتفــي ويهمس في أذني.. إنها لك الرســالة.... لقد جاء دورك الآن. ومدّ يده واستخرجها من / *أعماقه/ أعماقه هنا تمارس خديعة نحوية لا يتقنها غلمان النحو عادة، لأنها خديعة كبــرى، إذ إن الضمير في أعماق(ــــه) لا يرجع عليه إلا في الجانب الشــكلي في لعبة النحو المدرسية؛ بل يعود علينا معاً لكن لشــدة قربه مني وهو يهمس كان الضمير ينسحب من أعماقنا معــاً دون أن يلحظه غلمان اللغة الرديئة..* هل تبصر أيها الحكّاء تلك اللعبــة المقرفة في اللغة، لعبة الضمائر التــي تتبادل الأدوار وتتبادل

الخديعة بخفة باسلة؟ إنها الثمار الخبيئة البعيدة عن بهرجة الضوء.. هكذا تلاشى الرجل الستيني.. وتلاشى صوته وبقي ضميره متداخلاً وعالقاً في ضميري.. أدركت أنه رحل مثل التماعة البرق، ولم يترك خلفه سوى تلك اللحظة التي يحفر فيها حكّاء مختلف رجوعه/*لبيته/ قد يتصور أحد ما... أن بيته هنا تحيل بفعل نشاطها التداولي إلى أولاد وزوجة وأعمال بيتية ونفاق اجتماعي محموم.. لكنها ليست كذلك، إن بيته تعني رجوعاً متواصلاً نحو العزلة اللذيذة، رجوعاً نحو صحراء البياض الأولى، هكذا يرجع الحكّاء لجذموره الأول دون أن ينطفئ.*

فتحت الرسالة فأخذت حبات الرمل تتقافز حولي مشكلة حلقة صحراوية من الوجوه والكلمات غير المدشنة.. جلست ورحت أقرأ الرسالة، حبات الرمل كانت عبارة عن وجوه ممهورة بمهر واحد، كان مرمى بصري يغادرني وهو يهتز ويرتجف.. تقول الرسالة:

«نحن السادة والكبراء لهذه الصحراء الكونية المهيبة...

نحن معلمو الصحراء المختفية...

نحن ورثة الحكايات الكبرى وهي تتعرى.. نحن الحكاؤون ندشّن حياة الحكايات، ونترك خلفنا مساحات من البياض المعقوف.. مساحات غير مكتشفة نتركها للكبار أصحاب الطاولات الوحيدة والمنعزلة والباردة.. طاولات معبأة بالتعرجات والانحناءات.. طاولات تتسع لخرائط الكون والحياة والوجود.. طاولات تجيد الأيدي التي تناوبت عليها الكتابة بشكل سحري، أيدٍ تحترف صناعة الحكايات العاصفة

بالغرابة والدهشة.. أيدٍ تتقن لعبة الكتابة وأوجاعها المنسحقة.. نحن الصناع المهرة نتوارث هذا السحر مثلما يتوارث الكسلة أحشاءهم، إنه قدرنا الأفعواني أن نكون نحن السادة معلمو هذا الصحراء صناع لعب وأحجياتٍ لا تتوقف ولا تتهشّم بتقادم الأرواح والأزمنة».

المساحات الممهورة بالماء:

لسان عاش ويعيش دهوراً ليروي أنه لسان الجاحظ.. والسهروردي... وابن عربي.. والنفري. والحلاج... وبورخس.. وماركيز ومحمود جنداري.. ومحمد خضير.... إنه لسان الاختلاف الذي يطوف بصاحبه في كل الخرائط الحية.. حتى الآن لا يدرك أحد تلك الأحجية التي تطوف من آلاف السنين بين هؤلاء الخُلصاء، أحجية اللسان كيف يمتطي فم الحكاء، وهل الفم هو من يمتطي اللسان، أم اللسان يمتطي الفم؟ وهل المياه التي حفظ فيها هذا اللسان تشبه المياه التي تجوب أعماق الأرض، أم أن مياهه مختلفة؟

تحت أديم العطش كانت المياه تجوب أعماق الصحراء.. مياه تتدفق بين الصخور.. بعيداً عن أشعة الشمس اللاهبة كان الماء يجوس كل شيء بصمت فادح، كان يسير مبتعداً عن الضوء والسطوح، كان يوغل في تلك التجويفات والصدوع المخفية، كان الماء قد أنهى دورته الكونية تحت الأرض وعمَّقَ مساراته، وصار له خارطة تمتد تحت عروش الملوك والصعاليك والمخنّثين، وتحت كل عاقر، كان الماء يمد شرايينه تحت الوسائد، كان الماء يمارس سحره الكوني

الطالــع مــن الأزل.. كان الماء يمتدّ ويمتدّ حتى بلغ الذروة في رســم مسيرته الوحشية في تلك الأعماق القصيّة.

قبــل أن يتفجّر أول نبع ويمارس مهمته في غســل الأرض، وقبل الجريــان في أرحامها المتناثرة شــق الماء روحه، وسُــمعَ له صوت همهمة عظيمة، تنطلق هادرة مثل أمم من الخرير تنســكب بقوة شاقة رحــم الأرض بعنف كبير، سُــمعَ فــي تلك اللحظــات الأولى صوت الماء، سُــمعَ صوت الماء وهو يشــق روحه، ويســتخرج من أعماقه لساناً ويرمي به على الأرض ويقول له:

«أيها اللسان ستكون الوحيد وآخر من يبقى

ليبصر الملوك وهم يُحملونَ إلى

شقوق الأرض..

ستعيش طويلاً حتى تبصر فورات الدماء

تشقّ أعماق الأرض

وتكون رديفة للماء

أيها اللسان ستبصر أمماً من أمواج الدماء

يتبعها أصوات أمم تنهض للموت

وهي مسرورة..

ستبصر كيف ستكون صدوع

الأرض..

وجيوبها وأراضيها السُفليةُ

موحشة وباردة

مثل أحضان أي عاقر

حزينة...

ستبصر دكات الطوب التي تشيد

للحكائين الكبار

يتناوب عليها

غلمان الرمل

ويبرحونها طمساً وتشابهاً وخزياً

وسيكون عليك اختيار الأفواه التي

تعرف أن مجالستك

لها ستكون مثل قدر الحكايات الكبرى وهي

تطرد

الانطماس

والوحشة

والضغائن»..

أغلق اللسان أذنه وغادر باتجاه الشرق سريعاً. فارتفع الماء عالياً، ارتفع عالياً، ثم هبط بقوة ضارباً أديم الأرض تحته، وتفرّق في أوديتها الجافة وغدرانها الصادية، سار الماء في تجاويف أعدّها بنفسه من تحت الأرض.. سار الماء ودارت رحى الأرحام المتيبسة والجافة، وارتوت الأعماق الوحشية للحكاية..

خريطة الصحراء الوحشية:

لم تكن تلك الصحراء التي كان اللسان يتنقل فيها معروفة حتى اليوم، على الرغم من أنّ معلمي الصحراء الكبار وشغّيلة القص أسهبوا في وصف وجمع تضاريس الرمل، بيد أن تلك الصحراء الغريبة لم يستطع أحد الإمساك بها ليدوّن تضاريسها الرملية، ويقال إن معلم الصحراء الأول كان يخفي في غرفته الرملية خريطة سرية لصحراوات غير رملية، صحارى مؤثثة بالأحلام والمياه التي لم تلامس لذة الطين الأولى.. خريطة يقال إنها تحمل علامات كبرى للحكايا، وعلامات أخرى للخراب القادم، كانت تلك الخريطة خارطة الحياة السرية، خارطة تمكنك من تلك الأسرار المهيبة، وتتيح لك رصد اصطدام العوالم وتدافعها على سقف المعمورة.. بعيداً عن حمى الأكثرية كانت تلك الخريطة تنهض وتتعرى وتغوي وتغري العزلة

المضروبة حول تلك الأرواح الكبيرة.. كانت شرنقات أرواح أولئك الكبار جُلّاس الصحراء تغلي مثل مرجل يئزُّ ويغلي بقوة.. كانت أرواحهم تغادر في تلك اللحظة وهي تهرول لتغادر حمى الطمأنينة القطيعية، وتدخل بنعلين من النار إلى تلك المفازة الصحراوية التي تهب الحياة للجَسور، وتختم على جبينه بمياه الأعماق الوحشية..

في صحراء موحشة يندلق لسان المرويات المهيبة، يندلق من العماء لسان سحري سيجوس المهاد مستتراً في أفواه العلماء والحكواتية الكبار، لا أحد يعرف بالضبط متى وكيف عُرف هذا اللسان وأين، وهو ينتقل سراً بين الساردين الكبار أصحاب الأعماق الكونية وهي تحتفي بلسانها، وهو يروي ويروي دهوراً من الحكايا، لا أحد يعرف كيف يركب اللسان صاحبه، ومن يركب من، هل الحكّاء هو من يركب اللسان؟ أم اللسان يركب صاحبه الجديد ويصيبه بلعنة الحكي؟

وحده اللسان يجوب طقوس العماء، وينحدر ويقود خطى الحكائين الكبار نحو الصاعقة التي ستبذر في الأرض ثمار الانشداه والتوقف والسكون... إنهم يروونَ هذا الكون بشكل فادح.

شقوق المدن:

كل الوجوه التي أصادفها تكون موشومة بالمدن... هكذا تشتعل حروب المدن الموغلة في العتاقة، هكذا تدشن حروب المدن المهيبة،

تلك المدن التي ترسم تضاريسها في وجوه ساكنيها وتتركهم نهباً لتواريخ سرية، وشوارع مشتعلة بالحياة والانطفاء معاً دون أن تكون قادراً على الإمساك بهذا الفرق بين الاشتعال والانطفاء... تلك المدن تترك ندوباً وشقوقاً في وجوه ساكنيها.. إنها تحاصر ملامح الوجوه حتى تحتل الوجه بالكامل وتتطاول لتطل على العالم من خلال الوجوه الجوالة، هكذا اكتشفت تلك النزعة السرية بين محمود جنداري ومحمد خضير، تلك الحمى التي ترافق اندلاق التضاريس على الخرائط، في تلك الليلة ذاتها تقاسم رجلان خفية لساناً واحداً وتناثرت حولهما الخرائط، واندلقت من ذلك اللسان مرتسمات وتهويمات وأساطير وأباطيل. خلطة عجيبة من اللسان سقطت وهو يشق سقف الغياب، ويرتدي فم رجلين نهضا معاً وتفرقا معاً بعد اجتماع غريب، وفي مكان لم يهتكه الظلام والضوء.. تفرق الرجلان بعد ذلك الطقس العاصف بالمدن وتضاريسها، اتجه جنداري إلى الشمال، وتوجه محمد خضير نحو الجنوب، قرر جنداري أن يموت في الثلج، وقرر محمد خضير الموت في الحر والقيظ واللزوجة، لكن قبل أن يصل كل منهما إلى وجهته سمع اللسان يهمس له أنت يا محمود سيكون عليك مواجهة المدن بالتواريخ والدم والملح، ستكون حكّاء المدن ونديمها الذي لا يمل.. وأنت يا محمد عليك أن تواجه المدن كل يوم بالحقيقة والرصد والتوصيف، ستعيش طويلاً حتى تبصر بعينيك كيف تنهض المدن بالخراب، وكيف تشيد وترمّم روحها، ستعيش حتى تكون وصّافها الذي لا يمل.. لكنْ اسمعا، سيكون عليكما أن تفهما أن المدن ثوب لا يخلع ولا يتغير لونه بتقادم العصور والملاحم والتضاريس،

ستسمعان هسيس المدن، وستبصران معاً كيف ترجع المدن وجوهاً من الثلج والنار.

/نينـوى/ البصرة/ نينوى هنا ليست المدينة التي ذكرها الرحالة، وليست المدينة التي ساسها الآشوريون، وإنما هي مدينة موشومة على باب خشبي عتيق يمكن لك أن تراه وأنت تهبط درجات سلّم حجري خارج حدود تل التوبة، ويمكن لك أن تراه أيضاً إذا كنت قادماً من جزيرة الأدمة، سيكون عليك أن تجعل نهر دجلة عن يمينك حتى تهتدي لتلك الدرجات الحجرية، وحينها فقط ستبصر خريطة تلك المدينة /...و.../ حرف الواو هنا يقوم على تقديم خديعة لغوية مستهلكة، إنه للعطف والمشاركة، ولكن العطف هنا مضر بشكل كبير، فكيف تعطف المتشابهات دون تقديم أو تأخير لن يكون الواو هنا بريئاً من تهمة الأول، فالأول والأهم والمهم أبداً، لهذا فالواو هنا ليس للعطف وليس للتشريك، إنما هو تلك الحياة المتواصلة للسان واحد، هكذا يخرج الواو من جحره بشكل مهذب، *والبصرة ليست المدينة التي تنام في بصرياثا، وليست المدينة التي ترقد على فم الخليج، وإنما هي مدينة يمكن لك أن تبصرها إذا كنت قادماً من بحر المعمورة الأول، وقد جعلت البحر خلفك تماماً وبعدها سيكون عليك السير بمحاذاة الصحراء، ستصادف خيطاً رفيعاً من المدن المتناثرة، وحين يكتمل الخيط ستجد من يسحبك نحو طريق جانبية، ثم تهبط درجاً حجرياً أيضاً، ستكتشف خارطة تلك المدينة وقد وشمت بالنار على باب خشبي لا يوجد فيه مزلاج.*

الخرزاتُ المبتورةُ أو الحائطية

نعـم أنا من وصل تلك المفازة مـن عروق الأرض، وجلس تحت العباءة الشـاحبة بلون العالم، وكلم أسراب الهداهد المحلّقة والهابطة.. نعم كنت آخر الواصلين إليها وأولهم، وتركت ظلالي الخرزية تتحرك في البقعة المتشـققة من الأرض فتتشـابك عليها رؤى وتتنافر عروق الطين وتتلوى.. بقربي تحلّق أسـراب من طيور الهدهد، تطلق صوتاً موحداً يشـد قامة الألوان لتجتمع حولـي... هبط أمامي كبيرها بوردة مـن الريش تزين رأسـه، وحط قبالتي تماماً، وضـع عينه اليمنى في عيني اليمنى، حدّق فيها وأرسل صوتاً يحمل طيناً وخرزاً مشعاً ينادي ببهجة عتيقة ليجلسني بقربه، كان الصوت محملاً بكائنات تفرّ وأخرى تسـافر في مواقع لها أشكال دهليزية ومتاهات تتلقف روحي، ونجوم

تصطدم بشكل مخيف ببعضها، ورجال يتبعهم رجال، وأشباه تتبعهم نساء، كائنات بأشكال غريبة وأسنان نائئة وقبيحة.. كانت الخرزات تعكس في توهجها صورة العالم كأنه حلم طيني كبير يغلق رأسه ويسمع لصمته، تهدم طيني يحتدم بضراوة.. حرك الهدهد جناحيه بقوة، وهمس قرب أذني بلغة فصيحة، إنه موسم آخر من مواسم التنافر، إنه موسم آخر من مواسم طيور الهدهد التي تشير بأجنحتها إلى جهة الغرب المرصوفة بمواخير عديدة، وتقول سيكون قتل وموت وخراب يلحقه خراب، ستطل كائنات قبيحة وتجوب أرضاً مشرقية، ستزهر الأرض بالخراب والروث، وستعمل في روحكم لذة الطين والحيطان البالية، وستكون أرواحكم خربة وقذرة مثل روث الخنزير، وستتطاول أعناق العوام حتى تشرئب للموت، وترقد في شقوق منطفئة، وسيكون للخنزير عام ويوم يسمن فيه، حتى ينفجر وحده... ستهرول الدنيا نحو الانمحاء والانطفاء، وأنتم تغسلون الطين بالكلام، وتحدقون في عورة الصمت، وتقلبون نعمة البوح بين كفيكم فقط...... //. || *«إن النقاط المتسلسلة قبل هذه النقطة تعني ما تبقى من الكلام القابل لأن يعبأ بعدة كلمات أخر، لكن هذه النقطة بين الواديين لها دلالة محددة غير قابلة للتأويل، هي تعني أنها نقطة وحيدة تقف وحدها في نهاية العالم، معزولة عن أخواتها الباقيات، النقطة هذه هنا تعني أن لها دلالة صبي يتيم يقطن في قعر وادٍ سحيق يبصر من بعيد قطعة من العالم بشكل حلوى سحيقة تسكن خواء روحه التي تقطن في وادي جسده».*

***

يقــال إنه كان وحيداً مثل دمعة تنتقل ســراً من بين خدّ وخدّ.. يقال إنه كان أسيراً في وهاد سحيقة وله ألف لغة، وله ألف صورة.. ويقال أيضــاً إنه كان فقيهاً.. ويقال إنه شــهد مذابح دارت ســراً بين عالمين خفييــن.. ويقال إنه مربي طيور غريبة لها أربعة أجنحة، ولها مناقير طويلــة مثل أعناق الزرافــات، وإنه يعرف لغة هــذه الطيور، ويقال إنهــا قادمــة من أرض أخرى لها هيبة ولســان ينشــطر مــع كل لعبة كلام وبوح إلى لسانين، ثم تطل من الأصوات والألسن طيور الهدهد بأســراب متعــددة // دون نقطــة نهاية للمقطــع \\ ***«هنا لا توجد نقطة انتهــاء الكلام، بل توجــد عبارة تقول إن النقطة غيــر موجودة وهذا يعني أن دلالــة اختفاء النقطة التي تنهي، بالمــوت... والتوقف... بل تشــير إلى أن الحياة مستمرة وأن العالم مســكون بوديان سحيقة من الأرواح الدائبة، إنها حرب تجري في أسفل العالم، حيث القعر، حيث.... التلاشي...... والانمحاء»***.

***

أبصرتــه من بعيد متكوراً ومنحشــراً في فضــاء الأرض، أرض طينية تمتد تحته أفقياً وعمودياً في نفس الوقت، وهي متشــقّقة بشــكل كبير وموحش، والهواء ســاكن ســكون العالم المحيط بتلك الفلاة من عروق الأرض. كان نحيل الجســم، بدت عليه آثار صرخات موحشة وليال مترعة بالأسرار والبراري التي تطوق حضوره صار من بعيد أشــبه بقطعة ملقاة في الفلاة الجريحة وهو متلفع بعباءته ودافن رأسه الوحيد جيداً.. تهادى إلى مســامعي صوته مبتلاً منكســراً مخنوقاً من

بعيـد، وهو يتبرعم بقـوة حولي فاتحاً الفلاة على عـدة وجوه.. كانت زاويـة نظري متنافـرة مجتمعة في نفس الوقـت، بحيث صرت أراه ملقياً بنفسـه على طول الفلاة، لتستدير الأرض من حولي ويكون هو مستلقياً فوق الظلال المسـفوحة حوله، وناشـراً عباءته بعيداً داخل حاشية التراب.

كانت خطواتي متسـارعة نحوه وهو يشـعر بـي.. الحظ هذا من صوت أنفاسه، بيد أنه أبقى رأسه في عمق// تكوره \\ «*دلالة الخطوط المائلة هنا محددة بأنها تشـبه الوادي المنخفض في الأرض، والفعل يتكـور يعطي في موسـيقاه اللفظية معنى الانطمـاس والانطفاء في عمـق أو لربما فـي قعر ما*»، ناظراً في مسـبحته المتعلقـة بيده كان يولج أصابعه بين خرزات المسـبحة، وبصوت ندي يرسـل صورته فـي جوف الصـوت، فتعلق في رخام // موصلـي \\ «*دلالة موصلي هنا الموضوعة بيـن واديين عميقين هي للدلالة على مدينة منسـية مشـطوبة من خارطة الطين الكاذب حصراً، ولربما تكون حاضرة في خارطة كتب الجغرافيا المدرسـية فقط*»، وفـي عتمة البرد تنطلق من فمه طيور تحلّق حوله وتلامس هالة محيطة بروحه الطينية، وبتكوّره علـى وحدتـه والأرض من حوله تـدور بهدوء لتسـتقر بين فجواته، وتتلوى في العتمة الباردة تتشـكل روحه الحائطية، يرقبها هدهد بعين واحدة وخرز يعكس صوراً سحيقة...

***

وضعت رأســي تحت العباءة وغطيت نفســي جيداً بحيث لا أرى أحــداً، كنت أنظــر إلى مســبحتي بخرزاتها الثلاث وأنا مســتمتع بها تنفلــت بخفة بين يدي وتتلوى من اللذة المصاحبة لتحريكي لها، كانت خرزات من حجر يسـمى المهدهد، حجر نــادر عثر على ثلاث قطع منه، فكانت هذه المســبحة، ويقــال إن مادته هي دموع ألف فقيه خفي جمعــت وصارت حجــراً أملس نقياً، تنعكس فيــه الصور والحركات الدقيقــة، بــل إنها لتعكــس روح العالم وتقلبات أرواحــه، بل إنها كما زعــم الكفــوي مــن روح الأحجار القابلــة لامتصاص بحــار الحزن وبحــار اللذة // وتذويبها \\ فيها «*ودلالة الخطوط المائلة هنا لا تؤول، فهي تعني الذوبان في أســفل الروح في قعرها؛ ولأن التذويب يتم في الأســفل دوماً فهذا يعني أن دلالة الذوبان هي في الأســفل في الوادي المنخفــض*».. كانت الخــرزات تئن بين يديه وهــي تنزلق في الخيط نحو الأســفل، والخيط عبارة عن شــعر أبيض مجــدول بخفّة وجودة غريبــة وعاليــة.. كان أبيــض ناصعاً على الرغم مــن قدمه، يقال إنه مصنوع من شعر الخطيب البغدادي الذي شاب في ثلاثة أيام من هول الفتن التي تبرعمت في زمنه، وفي قعر فتنة التدوين يرســل الخطيب أطيافــه الحائطيــة ويســقيها بفتن الطين فتتحشــرج روحــه.. اختنق الخطيــب ببغداد واختنقت به، ولما تطاول عنق الحشــرجة من حوله أخــرج مدوّنته الطينيــة ودوّن عليها // أزيز \\ عصور وملاحم خفية وأخــرى لها زيف الــرؤوس المتدحرجة نحو دجلة والفرات.. شــاهد الخطيــب الطيور تلامس قعره الطيني كل الطيور لامســت قعره..... إلا الهداهد..

استوحش الخطيب.. العالم أغلق بابه // وجزّ شعره \\ «*جز تعني هذه الخطوط المائلة أن الخطيب مدّ يده لشعره الطويل، ومن شدة حشرجته اقتلعه من جذوره، والاقتلاع يعني من الجذر يعني من أسفل الشيء، أي مكان منخفض بالضرورة وادي الرأس مثلاً*».. ومات وحيداً، وصار العالم كائناً يتلوى خلفه، ثم وجدت خيوط الشعر المجدولة من شعر رأس الخطيب البغدادي لتدخل فيه ثلاث خرزات.. أولجت الخرزات الثلاث في خيط الخطيب المجدول وصار يسمع في الجوار أصواتاً قوية ومحتدمة، قعقعة عظام واصطدام أجساد وانسلاخ جلود، أصوات حيتان تنطلق من جوف بحار عتيقة وأزلية وأسماك ترسل أصوات موت جماعي خارج بحارها، وقهقهات لملوك وسياط تهوي وعاهرات متشحات بشهوة الطين والموت معاً، وعرب وعجم يعرون بعضهم بعضاً في سوق له دكات مرتفعة شيدت من الكلام جلبت من ماخور ///العم سام\\\\\ «*الخطوط المائلة بعنف وحدة وموت وعويل وصراخ هنا تعني أن لي صديقاً قال لي هل حقيقة أننا نرى أوغاداً أمريكاناً يتجولون في شوارع الحي الشعبي الذي أقطن فيه، أولئك المخنثون عبروا كل تلك البحار وأتوا من أجل النفط والمقامرة بدماء المغفّلين والحمقى، فقلت له إنها حقيقة فجزّ شعرك. الأوغاد هنا يقطنون بالقرب منا، تجدهم يعرونك في ليل طويل، ويطبقون موتاً نفسياً يخجل الطين، يطلقون عليك موسيقى ومياهاً مثلجة، أو قد تبصرهم يطلقون الرصاص على مجنون حدّق فيهم!!!!!! يا الله إنهم لقذرون وتنبعث منهم رائحة الخنازير المدجنة، إنهم يخجلون*

مفهوم الرجولـــة أليس كذلك؟ توقف لعلّي أتوقـــف، كفى انتهت دلالة الخطوط المائلة، توقفففف آه آه آه مفاهيم المروءة المنخورة».. يجلس إليها الأراذل، ويحتكم إليهم قوادون ولصوص وأوباش ورعاع وخدم ومخنثون شـــربوا حليباً من أثداء كلاب مريضة، وآخرون شربوا من مجاريـــر معلبة وحليب معلب، وعبيـــد وكلاب قطعت مفاهيم الوفاء، وقطط وعاهرات لهن فروج من الصراخ المعقوف وأثداء يتحشـــرج الطين فيها ويئن.. أصوات غنج قرب كرســـي كبير، وأصوات طيور رخّ عملاقة تحلق وتضرب أجنحتها بجنون وغيظ باحثة عن أســـراب الهداهـــد، وتداخلـــت الأصـــوات جميعـــاً وتحاورت فـــي العماء ثلاث خرزات وخيط من شعر أبيض..

قالت الخرزات الثلاث مجتمعات للخيط: نحن خرز // المهدهد \\ *«المهدهد ليس نسبة إلى طير الهدهد، بل هو نسبة إلى الهدهدة، وهي كما تقول أمي تعكس موسيقى الكلمة الهدوء والسكينة لما تكون طفلاً وتحتضنك أم مشـــبعة بعطر الطين وعروقه فيصير الهدوء، وســـتجد الوقار والســـكينة التي ترتبط بجنون انعكاســـات الخـــرز المحيط بك، وبالنتيجـــة مكان منخفض مـــن الأرض»*.. جمعنا من دمـــوع الفقهاء، وأمســـينا بين دمعة وفتنة أمســـينا... بين فقيه قيامة وفقيه دنيا... أمسينا بيـــن/ وبين... وبين هذين البينين // بين \\ خفيّ لم يبصره المتحلقون. والمتناثرون في العتمة وصقيع الثبات الموحش.

قـــال الخيط: أنا شـــعر الخطيب وموته الطينـــي... لما مات مولاي الخطيـــب أبصرت الناس متحلقين حول عينيه المفتوحتين، ولم تبصر

تلك الحشود دمعة مختنقة في عينيه اسمها العالم، ظلت محبوسة ثلاثة أيـام، وبعثرت الأيام بعضها بعضاً، ولما انصرف الناس بقي // قيس بن عمر \\ «*لا يعني اسـم قيس بن عمر هنا اسم شخص علم، بل هو هنا لا يشير إلى التمثال كما يزعم المعجميون، وإنه تمثال كانت العرب فـي الجاهلية تطوف حوله، بل هو خلوة معزولة عن العالم، هو اسـم يشـير في معناه الذوقي إلى الخلوة ليس إلى تمثال، أو إلى اسـم علم، هو هنا خلوة عابرة فقط*» وحده بقربه، وأخرج دُفّاً وضرب ضربات، فهامت حول مولاي الخطيب موجات خرزية وطينية تلوّت بين يديه المتيبستين. تسارعت الضربات وتسارعت الموجات والخطيب ينفث الشـيب عن شعره المجدول، ويطرد حشـود الفتن بيمينه عنا، وتلقف الـدُّف مـن يدي قيس بن عمر وأنشـد هـو فصلاً من بهجـة الوديان المشغولة بالفتن الخفية:

«مواسم مواسم تأتي وترحل مواسم مبتورة

مهملة مغمورة متشابكة وطينية

محملة بحصاد الرحيل والفراغ

الرؤوس.... والفؤوس... صفاً واحداً قامتنا

ليوم تحتشد فيه الوديان في حضرة فتنة يتيمة

لها ألف فقيه يحدّق في اختلافها المفتون

ولها ألف عورة من الكلام تفتح أوزار الموت وأطياف الخراب

ليوم تقوم فيه قيامة الوديان والفتن معاً».

إنها العبرة الأخيرة تنهض من رقادها فقط لتنحت وجهاً للعالم بلون الطين والخرز العابر.... لي.... // ولك \\ ***«لي ولك معاً كان يلوح الخطيب أثناء إنشاده وضربه على الدفّ، إنها تعني أنت، أي صارت الآن لي ولك كلتاهما تشير إليّ أنا قيس بن عمر بمعناه الذوقي الخلوة العابرة، على الرغم من لعبة الأقنعة النحوية التي تشير إلى الخطيب، بيد أنه أشار إليّ أنها لي أنا»***..

فقالت الخرزات بلسان واحد: لما صرنا من دموع الفقهاء الأخفياء، وكنا قطعة خرزية واحدة، تجمعت عيون حولنا في عراء موحش. الجميع كان يحدق في الوهج المنعكس منا ونحن في توهج مميت، ووميض يصاحب كل عين تسقط علينا، تغمرنا موجات الضوء، ويصير العالم صغيراً فينا حتى التقطنا صاحب العراء الذي يطوّق حضوره بأسراب من طيور الهدهد.. التقطنا ثم صيّرنا ثلاث خرزات متشابهة، فصار لكل منا لون، ولكل منا اسم تعرف به، سمى الخرزة الأولى // ***مبتورة*** || ***والثانية // الحائطية*** || ***والثالثة // الخلوة العابرة*** ||، وتناثر بعدها العالم في ألوان خرز المهدهد المجموع من دموع الفقهاء، هكذا كنا معاً نفتح الدرب بين يدي صاحب العراء وخيمته وطيوره تتبع حضوره في وهج العراء....

وفي وهج العراء دخلت الخرزات في شعر الخطيب المجدول، نهضت أولاً المبتورة، ولما استقرت في خيط الخطيب قالت وهي

تحدّق في الحائطية والخلوة العابرة: البتر.. هو الوشم الذي يلتصق بك فتكون فارغاً وأعزل ومقهوراً ومتفرغاً من كل الأشياء التي تحيل إلى الوزن، أو إلى الحدود.. البتر يذكرك دوماً بالوهم، ويذكرك بالجذر، أي لا يوجد لك شيء تعيد التصاقك به، أو لا شيء ترجع إليه بعد فساد روحك في غمرة الطين.. والبتر هو وشم سرمدي في روحك... نهضت الحائطية بخيلاء ووقار، ولونها ينتشر بكثافة تكسر تفاصيل الوهج المزيف، ودخلت خيط الخطيب وهي تحدّق في المبتورة مرة، وإلى الخلوة العابرة التي بقيت وحدها تحدّق كيف ينتظمن في صف سرمدي، وقالت الحائطية: ترجع بك الحيطان دوماً إلى فكرة الاتكاء فقط، فالحائط يجعلك تحاول أن تسند ظهرك إليه، أي يجعل عقلك ومزاجك جاهزاً لفكرة المغامرة؛ لأن ظهرك مستند إلى شيء ثقيل ومهيب له صلابة، ويشير إلى لحظات الاحتضار لما تفقد عزيزاً تتكئ على الجدار فيكون الجدار وهماً عضلياً يشد عضلاتك الذابلة أمامَ دهشتك في لحظة تنفرد فيها بطينك المهزوم، الحائط يذكرك دوماً بالعجز؛ لأنه خارج عنك وأنت مبتعد عنه، فهو قرين عجزك أيضاً، والتناقض هو أساس وجودك وحضورك.. الحائط هو حياتك الغائبة، وهو الذي يستر أصواتك دوماً ولا يسمح للريح باختراقك من كل الجهات، يحافظ عليك الحائط، فهل فكرت يوماً بسرّ بقاء الحائط في مكانه وعدم تركه الواجب تحت كل الظروف والمغريات... محتاط دوماً محتاط... ثم صمتت الحائطية وسكنت.. فنهضت الخلوة العابرة وتقدمت نحو خيط الخطيب وهو

يرسل أصواتاً تحتدم بقوة في وهج العراء، نهضت وتحرك لها خيط الخطيب، واضطرب لدخولها فيه، وبعد أن استقرت فيه سُمع لخيط الخطيب أنين عظيم، وصل إلى كرسي السلطان وَفتنه المحوطة بألف خرزة وهمية، هسهس خيط الخطيب وارتجف من هول الخلوة العابرة وهي تضع طينها المهدهد فيه، وترسل أطياف الطين نحو وهج العراء والوديان، تتبع حفيف واصطفاق أجنحة أسراب الهداهد المحلقة فوق انتظام الخرزات في الخيط وقالت: تحيل الخلوة إليك بعدة أحاسيس، لكن سيدها هو ترك الدنيا والإعراض عن الطين، ولكن الخلوة تعطيك دوماً مفهوماً محدداً، أحياناً هو أن تذهب لقعر أي منخفض من الأرض، وتجلس وحدك وتنتظر أسراباً من طيور الهدهد، لتترك عينيك تلتصقان بصوتها أثناء اصطفاق أجنحتها وهي تضرب أمامكَ موجات الهواء المحيط بك والعابرة... سيصبح للكلمة مع الخلوة معنى آخر، هو أن تهرب بطينك وتخلد إلى ذاتك الكاذبة، فتتعرى في الوادي، وتكشف عن وجهك القبيح، وتشاهد قبح حشرجتك المكومة وهي تطلق صوتاً وحشياً في وديان الطين... تتصور في خلوتك لما تجتمع بكلمة العابرة، أن العالم كله محض طين، أو أنك قد تركت خلفك عالماً، لكنك كاذب لم تترك سوى الخوف والانهزام من أوجاع المرآة التي تبصرك كل صباح وأنت ذاهب للعمل، أو وأنت تذهب نحو مصيرك، أو وأنت تبتلع طعامك، أو وأنت تهرب من جنون قد يبصره المقربون منك. الخلوة العابرة تذكرك دوماً بمسبحة تتلوى فيها خرزات من الطين تراها تنزلق بين

يديك وأنت تتذكر رائحة الطين السـرمدية تدخل أنفك؛ لتشـعرك أن العالم يحرك أذنه؛ ليسـمع حركتك الوحيدة وحشرجتك المتقطعة في خلوتك العابرة تحت ظل حائط مبتور.

ختم

ليلة الحلم

بالخطيب البغدادي

وهو يطرد الفتن

مكتبةُ السدى

الزمــن يندلح للوراء بســرعة كبيرة ويســقط مثل خطاف عملاق محمل بآلاف الأثقال وهي تجرّه، فتتلاشى فيه أنات الزمن، هكذا كان البيت بشــكله الخارجي، مثل زمن خلفي راكد بعد أن سقط في القعر، ولــم يعد ينتبه له أحــد، بناء رمادي ثقيل الروح لم يتح له أن يكتســـي بنعمة الطلاء يوماً؛ فصار علامة دالة تشبه شطباً في جبين أحدهم، أو جرحاً قديماً بقيت آثاره التي تقاوم تيار الزمن.. بقي البيت دون طلاء؛ ليكون وجهاً محايداً لا يمكن فهم ملامحه، هل هو مبتسم أم غاضب أم حزين.. هكذا تماماً كانت البيوت وواجهاتها بالنسبة إليّ على الأقل.

كان البيت مــن الخارج عبارة عن جدار كبير، ومترفع ودون أي نتوء أو نقوش أو زوايا.. جدار مربع الشكل شاهق الارتفاع، ولم يكن

فيه أي كوة أو شباك يتسرب منه أي شعاع أو ضوء يمكّن أحداً من التلصص لمعرفة ماذا يوجد في الداخل، في وسط هذا الجدار الفاحش الاستقامة ينتصب باب حديدي بواجهة واحدة تعرض لطعنات الصدأ في أسفله، وعن يمين وشمال الباب حَوَّل الأطفال الجدار إلى لوحة كتابة، بعضهم يكتب الكلمات الصعبة، وبعضهم كان يتخذه منبراً يخط عليه التهديدات والوعيد، وبعض المراهقين حوّله إلى متنفس للتنقيص والاحتقار والشتم والتشهير ببعض الصبية والفتيات. البعض منهم كان يستخدم الطباشير الأبيض والملون، وبعضهم كان يرغب بترك كتابته لتكون مثل جرح غائر لا يمكن للزمن محوه، فكان يكتبه بطلاء أظافر بناتي، لا سيما جمل التفّضيح والتهتيك الجسدي.. حافظ جدار البيت على الرغم من تعاقب السنين على عبارات بقيت غارقة في عمقه الرمادي وصارت مثل ندوب لتواريخ سرية خرجت من مغطسها لتحلّق في فسحة مرئية يتداولها العابرون والساكنون الجدد في ذلك الحي، وتحولت بعض العبارات المكتوبة إلى أيقونات وحكايات كبرت مع مرور الزمن.

على الجدار الأيمن للبيت بقيت عبارة (بيت الدببة) محفورة بقوة كبيرة، وتم تعميقها لتتحول فيما بعد لتميمة محفورة بقسوة على الأسمنت، ومذكرة بسيرة أصحاب البيت، وبقيت عبارة (المجانين الثلاثة) أيضاً محفورة بقسوة، وتم تعميقها بواسطة أداة حادة بينما بقيت عبارة (مكتبة الصفيح أو بئر الصفيح) تقاوم أثر الانطفاء الزمني المكتوب بطلاء أظافر بناتي اللون، بينما على الجدار الشمالي

للبيت كتبت عبارات تنتمي إلى مجال التشهير الجسدي ببعض صبيان الحي، وبعض الفتيات، وغالبية العبارات تلاشت أو تم شطبها، وبقيت آثار خطوطها وتعرجاتها وأخاديدها، تغطس وتغيب في كآبة الجدار الخارجي للبيت، وتنسحب من مجال الحياة وتندغم مع الأفول.

بقيت سيرة ساكني هذا البيت تهرول من فم إلى فم، تختفي وتعاود الظهور مثل جمرة حارقة تلهب وجوه الفصول المتعاقبة، وتشيع طقساً من الرعب الأدرد، وتحولت إلى كابوس يغمر مخيلات الأطفال، واستغلت كثير من الأمهات سيرة ساكني البيت لتخويف أولادهن، على الرغم من وجود كثير من الشباب الذين يعشقون المغامرات والتلصص، إلّا أن أحداً منهم لم يفكر يوماً بمحاولة اكتشاف هذا البيت من الداخل، أو التسلق من بيوت الجيران لمحاولة فهم الذي يجري فيه؛ فبقي البيت الرمادي محافظاً على غرفه السري وعتمته العلنية، وظل بئراً ومنجماً للخوف، الشيء الوحيد المكشوف من سيرة ساكني هذا البيت أن ساكنيه هم ثلاثة إخوة طاعنين في السن، رجل واحد وامرأتان، وكلما خرج أحدهم يرجع للبيت ومعه علب صفيحية متنوعة، لكن أغلبها كان من علب السمن الكبيرة، لا أحد يعرف من أين يحضرونها؟ علب فارغة متسخة تفوح منها روائح عطنة وبعضها نظيف، كان خروجهم من البيت في السنوات الأخيرة نادراً جداً، فيبقى باب البيت موصداً قرابة عام كامل أحياناً، وكلمات طالت مدة مكوثهم في البيت وانعدم خروجهم منه، فتشتعل مخيلات الجيران بكثير من القصص والأساطير التي تنسج حول الأخوة الثلاثة.

كنت أكثر أهل الحي فضولاً وتتبعاً لسيرة ساكني هذا البيت، وطيلة سنوات بقيت أحفر في سيرتهم؛ لكن لم أصل لشيء مهم سوى بعض الأخبار المبتورة من هنا وهناك، ومنها أنهم أولاد تاجر تركي قدم للموصل بتجارة، ثم أضاعهم في زحمة السوق الكبير في المدينة، وبقي يبحث عنهم أياماً ثم توفي ودفن في مكان مجهول، وتاه أولاده بعده، تماماً وهناك أخبار تقول إنهم ورثوا تركة كبيرة من الذهب من أبيهم التركي، واضطروا للهرب من الأستانة بأنفسهم خوفاً من اللصوص، واختاروا الموصل مدينة للعيش، واكتشفت أن الرجل هو الأخ الكبير للسيدتين، وعرفت أيضاً أنهم أحيلوا للتقاعد جميعاً عاماً بعد عام، على الرغم من أن أحداً لم يشاهدهم يوماً يذهبون للدوام أو العمل، ولم يستطع أحد أن يحصر أوقات خروجهم، بل كانت دون مواعيد ومختلفة ليلاً ونهاراً، يخرجون فرادى من البيت الرمادي، ويندسون في زحمة الوجوه، وكلما رجع أحدهم يكون محملاً بعلب الصفيح القذرة.

كانت حياتهم بالنسبة إليّ كلها بكفّة وعلب الصفيح بكفّة، سنوات طويلة وهم يجمعونها حتى صرت أتخيل مسخاً من الصفيح يعيش معهم وطعامه علب الصفيح. وعلى الرغم من أن البيت الرمادي قد صهدته الشمس، لكن سيرتهم لم تذوِ في رأسي يوماً، بل بقيت تشتعل وتتوسع وتتداخل سيرتهم مع سير المسوخ والممسوسين والمنبوذين واللائذين بالعزلة، فبقيت حياتهم السرية تُخشخشُ حولي، وتنغرز صورهم وتفيض في الظلام.

***

في تلك الليلة شعرت أن هناك شيئاً يناديني.. صوت ينهض من قعر دفين وبارد، صوت معبأ بوجوههم يناديني ويتسرّب في شقوق روحي، مثل دبيب النمل يتصاعد دبيبه بداخلي يحثني على الخروج، وفعلاً غادرت البيت وكان الدرب خالياً تماماً، تركت خطواتي تنحدر نحو البيت الرمادي، وإذا بباب البيت مفتوح بشكل جزئي، لم يُرتَج، وبدون تردد دلفت بسرعة للداخل، وأثناء إغلاقي الباب أرسل صوتاً عميقاً تسلل لداخل البيت كاسراً يوميات الكسل والهدوء والظلام والرطوبة، ومانحاً البيت إشارة سرية لدخول غريب لبيت الدببة أو مكتبة الصفيح أو بئر الصفيح.

كان هناك ممر طويل تمتد على جانبيه غرفتان، وعن يمين وشمال الممر علب صفيح تم رصفها بدقة كبيرة، حتى غطت جدران الغرف من الخارج بشكل كلي، علب صفيح بكل الماركات والأنواع امتدت مثل نبات متسلق وحجبت الجدران وحلت محلها، تقدمت أكثر وعبرت ممر البيت لأنتهي إلى حَوش مربع، وقبالتي غرفتان أيضاً متجاورتان، وفي وسط الحوش بناء دائري مدولب مغلف بالزجاج بالكامل يشبه الفانوس تماماً، عبارة عن زجاجة كبيرة ويتوسطها من الخارج باب زجاجي، وفي وسط هذا البناء المدولب قبة فانوسية بارتفاع مترين تقريباً وعرض مترين، وتسري عبر الزجاج إنارة صفراء كثيفة، حاولت بسرعة اكتشاف الطابق الثاني فوجدته بأربع غرف مثل التي في الأسفل تماماً، وجميع الجدران مغلفة بعلب الصفيح. بدت جدران البيت في الليل كأنها مطلية برسوم علب

الصفيح من كل العصور، وهي مرصوفة بدقة متناهية وحولت البيت إلى فسيفساء صفيحية، تشبه لوحة كونية تحاكي أصوات البشرية وهي تعبر غابات عميقة ومُخرَّزة بوجوه تحفّ بها أصوات المياه والأعماق المفلطحة للحياة.

***

منذ ذلك اليوم الذي دلفت فيه للبيت الرمادي وخرجت بسرعة، ودون أن يبصرني أحد من ساكنيه، أو من أهل الحي واكتفيت بمشاهدة تفاصيل البيت الخارجية من الداخل، شعرت حينها أن الصوت الذي يخلفه الصفيح وهو يصطدم بالأرض، أو حين تصطدم علب الصفيح ببعضها، فإنها تولد صوتاً غريباً يكتسح عظامي ولحمي، ويتوغل عميقاً كاسراً كثافة الموسيقى الداخلية لإيقاع حياتي، بقيت مدة طويلة أشعر أن الصوت الذي يخلفه الصفيح يحمل رسالة سرية من الأرض تتسرب عبر الصوت الصفيحي بمهارة وخفة غريبة.

بعد ذلك اليوم المفصلي بحياتي لم أستطع الرجوع لنفس الشخص الذي كنته، وبقيت صورة الأخ الأكبر حسيب وأختيه خيرونة وسدى تتماوج في ذاكرتي، وبعد أسبوع على تلك الحادثة استطعت أن أشاهد حسيب لمرة واحدة فقط، وكذلك خيرونة وسدى شاهدتهما لمرة فقط، وبشكل منفرد، كان حسيب حينها راجعاً للبيت وهو محمل بعلب الصفيح يحملها بكلتا يديه، وتفوح منها روائح القذارة والعفن الذي يتسرب من العلب الصفيحية، ولم أستطع إلا أن أراقبه بدقة،

طريقة سيره، ملابسه التي لم تتغير، البيجامة المقلمة ذاتها، وشعره المسترسل والكثيف، وما إن وصل لباب البيت دخل بسرعة وأغلق خلفه الباب، ولم يكترث للعيون التي تحدق فيه، ولم يعر أي التفاتة لبعض التعليقات الساخرة من الصبية، بل واصل سيره بثقة كبيرة، وبعد أن أغلق الباب خلفه. دخلت لبيتي أيضاً وألقيت بنفسي متهالكاً على السرير، وشعرت بندم ومرارة تسري بعروقي، لأني لم أفتح الغرف ولم أحاول اكتشاف الذي بداخلها، ربما كان عَليَّ أن أكتشف ما تخفيه تلك الغرف في الطابقين الأول والثاني، ثماني غرف في بيت يسكنه ثلاثة أفراد فقط يا ترى ماذا يفعل ثلاثة أفراد بثماني غرف؟ وماذا يوجد بذلك البناء الدائري المدولب وسط البيت كأنه فانوس أو فنار بحري؟ وهل يمكن أن يكون حسيب الآن جالساً بين أختيه يحكي لهما عن رحلاته القصيرة في جمع علب الصفيح النتنة، أم هو الآن يجلس في ذلك البناء المدولب المقبب بالضوء بالأصفر، وهو يدخن بشراهة ويكتب سلسلة أيامه، ويقشر تفاصيلها على ضوء فانوس شحيح، وماذا سيفعل لو أنه كان يكتب وكل قليل تفوح الروائح العطنة من بيته؟! ألن تجعله ينهض ليستحم من الدبق العالق في جسده ويديه، ولكن لمَ لا يكون حسيب معلماً متقاعداً أضاع عقله في الصفوف، وترك له التلاميذ ندوباً وشروخاً في ذاكرته ونوع الكتب التي يقتنيها، ولكن لا أعرف لماذا أتخيل حسيب وهو يقتني الكتب أو يحاول تشميس ذاكرته أحياناً خوفاً من أن يصاب بالزهايمر؟ لماذا أشعر أن دخان سجائره يصل أنفي ويخنقني، ويجعلني أحس أنه يدخن

نوعاً رديئاً جداً يسبب له سعالاً، وهذا السعال كان حسيب يفرح به أيما فرح، لأنه الوحيد الذي يبقيه يشعر أنه على قيد الحياة؟ وثم أختاه سدى وخيرونة لماذا لم تتزوجا؟ ولماذا تقومان بجمع علب الصفيح مع حسيب؟ هل هما فرحتان بجمع هذه العلب؟ التي صارت كابوساً يتدحرج فوق زمني محطماً تعرجاته السرية.

علب الصفيح بصورها وألوانها المتنوعة اللعينة صارت تتكاثر وتتقافز في رأسي، وأشعر أنها تكثر وتكثر.. وسوف تنفجر من بيت حسيب في يوم ما لتحلّق في الدروب وتحطم البيوت؛ بفعل عصفها، وسيكون قسم منها محتفظاً بالغطاء الحاد وهو مقصوص بشكل غير كامل لتمارس جزّ الرؤوس والرقاب والأذرع وحراثة الأجساد، لقد صارت علب الصفيح خوفي الذي أعشبَ وتعرَّشَ بروحي، وصرت أراها في كل يوم تحلّق حول الحي بكامله، والدبق يتطاير منها في كل مكان، وهذا الدبق وحده كفيل بتحويل حياتي لجحيم، ولأن يصيب جسدي بالحكة والتحسس والقرف. أحاول التخلص من هذه الصور المُعّرشةِ بروحي، ومع جريان الزمن وانسكابه، كان زمن حسيب وعلبه الصفيحية يندس وينسكب أيضاً في التفاصيل اليومية والعابرة فاتحاً بوابة من الاستفهامات حول الحياة الصفيحية لحسيب وأختيه، وصرت أختنق بحادثة التلصّص التي قمت بها، وفي كل يوم أتخيل حياة حسيب بشكل مغاير تصاحبه حياة أختيه البدينتين، وهل هما يا ترى مستمتعتان بهذه اللعبة، لعبة جمع علب الصفيح؟ ولكن لم لا يكون حسيب مجرد أحمق ومغفل لا يدرك ما يفعله، بل هو فقط

منخرط بلعبة تجاهل إيقاع الحياة. وهو يحشو حياته بلعب دور جامع علب الصفيح، يجمعها نهاراً ويلقيها ليلاً ثم يرجع لجمعها والتخلص منها، هكذا دواليك. لعبة دبقة يتخلص بها من دبق الحياة، أو أنه يحاول أن يطوق نفسه ويلغز، سيرته أمام الناس؛ لتكثر الحكايات حوله، وتتسج حوله الأقاويل، ثم يلعب لعبة كارثية ويتحول لشخص مشهور، أو إلى رمز لهذه المدينة الكسولة، ثم تتحلل سيرته الصفيحية في أنهار المدينة ومساربها المشروخة، وتتفرق حياته في الصحف، ثم تغوص سيرته في أخاديد المستقبل. ولم لا؟ هذا ممكن جداً، لا سيما أن شكل علب الصفيح وغرابة ما يقوم به يتناسب مع طبيعة الإيقاع الكسول لطبيعة الصوت الناتج عن ارتطام الصفيح بالأرض، فالصوت الثقيل الحاد هذا يشبه إيقاع المدينة في رتابته وثقله وكآبته الرمادية، ولهذا بقي بيت حسيب رمادياً مصهداً بتعاقب الشمس عليه وكذلك هذه المدينة، بل إن إيقاع مفردة الموصل صل صل موصللل يشبه تماماً الصوت الناتج عن ارتطام الصفيح بالأرض، هل هذه صدفة أن يكون حسيب يدرك أن إيقاع الجرس الموسيقي الرتيب للموصل يشبه إيقاع علب الصفيح، وهي تسقط على الأرض، أو وهي ترتطم ببعضها، لكن كيف انتبه حسيب إلى أن المعجميين الدهاة فاتهم ذكر صوت الصفيح؟ كيف يعقل أن الخليل والثعالبي وسيبويه لم ينتبهوا لتسمية هذا الصوت؟ لكن هل يعقل أن حسيب هو الوحيد الذي انتبه لهذا الفراغ المعجمي الموحش في المعاجم، بل يبدو أنه أدرك أن رينهارت دوزي فاته أيضاً ذكر الصوت الذي يخلفه الصفيح

فـي كتابه تكملـة المعاجم العربية، ياه!! أية لعبة يتقنها حسـيب داخل حقول المعاجم. ولكن كل هذه الاستفهامات بكفّة والعبارات التي كتبت علـى جدران البيـت الرمادي بكفة، فعبارة (مكتبـة الصفيح) أو (بئر الصفيـح أو بيت الدببة) توحي لي أن هناك من اطلع على أعماق هذا البيت، أو أنه يدرك ماذا يجري خلف لعبة جمع علب الصفيح القذرة، وهـذه العبارات تنتمي إلـى عقلية قادرة على تحديد المسـار النهائي لعلـب الصفيح، فعبارة بئـر الصفيح ومكتبة الصفيح تنتمي إلى مجال تفكير واحد، وعبارة بيت الدببة قد تكون عبارة صبيانية؛ لأنها تحاول إسـقاط شـكل حسـيب وأختيه ببدانتهم، لهذا هناك علاقة مباشرة بين الدببة وبين أشـكال الإخوة التي تقترب من الملامح المنغولية، والتي تميز صاحبها بالبدانة والترهل.

نمت سـيرة البيت المصهد كثيراً في داخلـي، واحتلت كل حياتي حتى أقعدتني تماماً في الفراش، وصرت مريضاً بسيرة حسيب وعلبه الصفيحية، وصار جسـدي يذوي بسـرعة كبيرة، ومعه كانت روحي تجـفّ وتجفّ، حاول أهلي علاجي، لكـن كانت محاولاتهم تُطمرُ في اللاجدوى، وتفاقمت حالتي، وأثناء نومي رحت أهذي بسـيرة حسيب وعلب الصفيح وأنواع الأصوات، والبيت المصهّد، وصرت لا أحكي إلَّا عن حسـيب وعلبه القذرة، وذلك السـر الذي يغلّف البيت وغرفه الثمانـي، والقبة الفانوسـية المضببة بالضوء الشـاحب وسـط البيت المصهد، صارت حكايتي تفيض من الأفواه الدفينة، وصرت مشرنقاً بالدبـق مثل علب حسـيب، ومدموغاً بلعنة سـرية والجميع يتخافتون

بسـيرتي، وصرت مقروناً مع حسـيب في حكايـات الصفيح والدبق، وأني ممسوس، وقريباً سوف أشرع بجمع علب الصفيح مثل حسيب.

لك الآن أن تبصرنـي وأنا أنهض من وراء حدبة الموت المهيبة، وأرفـع قدماً مـن مياه الأحلام العتيقـة، وأفتح باب بيتنـا تاركاً خلفي الأصـوات العائلية الرتيبة تلحق بي، وتحاول أن تطرد أنين الفضول ورحيـق الكسـل، وأهـرول نحـو مكتبة الصفيـح، وأغمـر روحي بالتفاصيـل البعيـدة التي كانت تربض خلف الأفـق قبل أفوله، لك أن ترانـي متوشـحاً صيف الليالـي المقمرة، ودافعاً بـاب مكتبة الصفيح لأجد حسـيب ينتظرني، ويأخذ بيدي نحو أسرار بيته المصهّد، ويتمتم مرحّبـاً بـي وبقدمـي التي رفعتها مـن مياه الأحلام الأبنوسـية، كان الموعد العمائي مرتباً بشـكل دقيق مع حسـيب، فصرنـا نتجول بين جدران الفسيفساء العملاقة التي تطوق بيته من الداخل، ثم شرع بفتح أبواب الغرف أمامي ويشـرح لي تفاصيلها المختومة بالغرق الأزلي، ولك أن تبصر الآن، كيف تشرئب الأبواب ومزاليجها للفتح، وتنهض الأسـرار الدفينة المغبـرة، من غاباتها المخرزة بالوجوه والأسـماء، وتتفتت تقلباتها بين يديك. وحسـيب بقربك مرتدياً بيجامته السـبعينية المقلمـة بليالي العيـد، وندى الحمامات العموميـة وضوضائها، وفي نظاراتـه الطبية تنعكس صور التاجر التركي الهارب نحو الموصل، وهو يجرّ أولاده في أسواقها المعتمة وأزقتها الضيقة ومنارتها المائلة نحـو حدبة الموت، وفي جيبه تقرقع صرة الدراهم الذهبية، فتسـتفيق عين لصّ وتُعلّقُ التاجـر التركي على خُطاف قصاب بدين، وتصلب

سيرته المائلة؛ فيغيب الأب التركي بذقنه المقبب، ويبقى حسيب وخيرونة وسدى يهيمون في الأزقة، وتهيم أرواحهم حول المنارة المائلة.

في الطابق الأرضي فتح حسيب باب الغرفة الأولى أمامي على مصراعيه، فظهرت ثلاثة من قردة المكاك الآسيوية، قردة تمتاز بذكاء كبير وجسد متوسط الحجم، وشعرها غير كثيف، وتمتلك قدرة وحِرفية على محاكاة السلوك الإنساني بسرعة، وتعيش في قطعان كبيرة في الأديرة والمعابد البوذية، لكن كيف وصلت هذه القرود لبيت حسيب؟ من أوصلها وكيف لم يستطع أحد رؤيتها في الدرب يوماً؟ وكيف لم تفكر هي بالهرب؟ وهي قادرة على الهرب بسهولة؟ ما الذي تفعله هذه القردة؟ هل يعقل أن حسيب بوذي وهو يقوم بتربيتها وتدريبها مثلاً، ولهذا أرسلت له هذه القرود بشكل سري؟ لم أصدق حقاً أن قردة مكاك تقيم في بيت حسيب. كانت القردة الثلاثة تعمل ولم تكلف نفسها عناء النظر للقادم وهو يحدق فيها، بل واصلت عملها كأنه لا وجود لأي شيء غريب، كان كل قرد يمسك بمقصّ خاص بقصّ الصفيح، وقد وضعت علب صفيحية كثيرة قرب كل واحد منها وراح يقص علب الصفيح تلك إلى أربعة أجزاء متساوية، هكذا انخرطت القردة بقصّ علب الصفيح وترتيبها بمجموعات، ثم رزمها وإخراجها للغرفة الثانية المجاورة.

أغلق حسيب الباب، وقال لي أعرف أنه من الصعب عليك فهم ما تقوم به قردة المكاك، لكن يا صديقي حقاً إنه أسهل مما تتصور، فقد

كنت ممن يهوون المراسلة في المجلات، وتعرفت إلى راهب بوذي عن طريق المراسلة ذات يوم، وتكونت بيننا صداقة عابرة للمسافات والحدود والخرائط، وفي أحد الأيام أرسل لي رسالة يقول لي فيها ستصلك بعد شهر تقريباً ثلاثة قرود من نوع المكاك، وأنت تعلم أنها تقيم في الأديرة والمعابد بكثرة هنا، ولا يتعرض لها أحد، بل إن الناس تعطف عليها وتحاول تجنب الاحتكاك بها، لكن هذه القرود الثلاثة في صبيحة يوم صيفي حار قامت بجلب ثلاث علب من الصفيح تفوح منها رائحة قذرة فاحت في أرجاء المعبد، ثم صعدت بهذه العلب إلى برج الياغودا وراحت تلعب فوقه، ثم قامت بإلقاء العلب الصفيحية وتركتها تسقط وتهوي إلى أسفل برج الياغودا، وراحت العلب تصدر صوتاً كسر إيقاع الحياة الهادئة في المعبد، ثم أخذ صوت علب الصفيح يتصاعد وهي ترتطم ببعضها وبالأرض، محدثة جلبة كبيرة ومولدة صوتاً غريباً مات على أثره كبير السدنة في المعبد، وهرب الناس من المعبد، ثم اكتشف الرهبان أن صوت ارتطام الصفيح بالأرض كأنه امتص روح الأرض وسكينتها القارة، بل يا صديقي كأن علب الصفيح شربت سكينة وروح الأرض، ولا أخفيك أيضاً، فقد بقيت أصوات علب الصفيح غارقة في جدران الياغودا وقاعدتها السفلية العريضة، ومنذ ذلك اليوم يحاول الرهبان إعادة إيقاع الأرض للمعبد، لكن كل جهودهم فشلت، لأن صورة الياغودا ارتبطت بذهن الناس بعلب الصفيح، وبذلك الإيقاع الغريب الذي هشّم روحها وغرق في قعرها؛ لهذا قررنا إبعاد هذه القردة عن المعبد حتى يستعيد إيقاعه

القديم، وينسى الناس صورة علب الصفيح وهي تهوي من الأعلى، فأرجو منك أن تعتني بها لحين أن أطلب منك إعادة شحنها لي، وأنا أعرف أنك فهمت ما هو المطلوب منك، وماذا عليك أن تفعل لهذه القرود لتعيد إلينا إيقاع المعبد بدون صوت الصفيح.

سحبني حسيب من يدي نحو الغرفة الثانية، وكانت مغلقة، وما إن دفع حسيب الباب بيده حتى اندفعت روائح العفونة والرطوبة إلى أنفي، وشعرت بدوار كبير؛ لكن حسيب يشعر بي بشكل مذهل، فأمسكني مباشرة وقال لي لا تخف يا صديقي، سوف تتعود على هذه الروائح، إنها مجرد روائح يمكن لنا تقبّلها بمرور الزمن، وأردف أيضاً أننا نحن البشر نمتلك خِسّة إزاء الروائح، فهي بالنهاية محايدة، نحن البشر نحوّلها حسب أمزجتنا لروائح كريهة، وأخرى منعشة، وأخرى مثيرة وأخرى نسائية، ورجالية.. إلخ، هكذا دولاب من الكذب والدجل البشري، فالروائح بالنهاية محايدة ونحن الذين نسقط عليها أمزجتنا الفاسدة ونشوّهُ الكثير من الروائح. ولجنا للغرفة أنا وحسيب فكانت فارغة تماماً إلا من بئر في وسط الغرفة وشيّد على فوهة البئر جدار دائري بارتفاع متر واحد، تقدمت من البئر محاولاً النظر في قعرها، لكن لم أجد أي شيء سوى الظلام العاصف بالأعماق، وصوت ريح تدور في الأسفل بقوة كأن البئر مفتوحة من جهة ثانية تسمح بمرور تيارات الهواء فتحدث هذا الصوت. اقترب حسيب ولمس كتفي، وقال لي ربما من الصعب على الناس فهم العلاقة التي تجمع بين صوت الريح وهي تهب، وبين صوت ارتطام الصفيح

بـــالأرض أو ارتطام الصفيح ببعضه بعضاً، لكـــن صدقني لو فكرت قليلاً بالجرس الموسيقي لصوت الريح، وارتطام علب الصفيح ستجد أنهـا تنتمـي إلى جذر صوتـي واحد، قد يبـدو هذا الأمر مسـتحيلاً، صحيـح أنه مسـتحيل، لكـن حاول التخلـص من عوالـق الأصوات التي نبشـت ذاكرتك. اسـتمع لصوت الريح فـي البئر وتخيل صوت ارتطـام الصفيح، حاول وسـتتلمس تلك القوة التـي تربط بين أعماق الصفيح وصوت الريح، سـتتلمس أعماقاً وحشية من الخارج وشفافة مـن الداخل، فصوت الريح يشـبه هبوب الموت فـي بادية مقفرة من الأطفال والزرع، وصوت الصفيح يشبه تماماً صوت قلب يسقط على الأرض، إنـه صوت اللحم، صوت لحمي خارج من عمق اللحم، لهذا تجد أن صوت سـقوط الصفيح على الأرض يضرب الصوت مباشرة في القلب، تحس أنك تسـمع صوت الصفيـح في قلبك يعصره ويهزه فترتجف روحك، لهذا عليك أن تعيد اكتشاف لعب الحواس، وعلى كل حال يا صديقي هذه البئر التي أمامك في هذه الغرفة لم نحفرها، نحن إنما وجدت في البيت هكذا وحدها، لا نعرف كيف؟ وكلما حاولنا النوم أنا وسدى وخيرونة لا نقدر؛ لأن صوت الريح القادم من أعماق البئر يمنعنا، وبعد مداولات عديدة اتفقنا أن نلقم البئر ونغلقها بالصفيح؛ لأننا اكتشـفنا أن صوت الريح ينتمي إلـى نفس صوت الصفيح، ونحن في كل ليلـة نضع مئات العلب الصفيحية في البئر لنسـكت صوت الريح ونقـدر على النـوم، ونبقى نلقي علب الصفيح، حتـى نتعب ولا يبقى أمامنا سـوى متر واحد ليكتمل لقم البئر وينقطع صوت الريح، ولكننا

ننعس ونخلد للنوم، ولكن كلما حضرنا في صباح اليوم الثاني نجد أن علب الصفيح غرقت وغارت في أعماق البئر. وهكذا نعيد الكرّة كل يوم، وفي اليوم التالي تختفي علب الصفيح في قعر البئر كأنها تبتلعها، وبينما حسيب يروي لي هذه التفاصيل عن البئر والعلاقة بين صوت الريح والصفيح، كنت أتوغل في داخلي وأتشرنق باحثاً عن الأصوات التي تتركها الريح حين ترحل، وعن الأثر الناتج عن تداخل صوت الصفيح بالريح، حقاً كان حسيب محقاً بشأن تفاصيل كثيرة، خاصة الروائح التي نسقط أمزجتنا عليها، ونحن من يصنع منها جيدة ورديئة، وكذلك الأصوات صرت أكتشف كل قليل أن لحسيب معرفة فادحة بالأصوات، فهو يجيد الاستماع إليها، ويتقن فهم الرسائل التي يمكن للأصوات أن تحملها، ولكن هل يعقل أن يكون حسيب معلم موسيقى ستيني الطراز مثلاً، ولهذا معرفته بالأصوات كبيرة ومريبة وغريبة يستطيع وصف الأصوات بدقة غريبة، ويمتلك القدرة على إيجاد الجذور المشتركة لأصوات الأشياء، ويتقن أيضاً الإصغاء إليك بشكل لعين يستسلم تماماً أمامك وأنت تحكي، فتشعر كأنه خلق ليكون مستمعاً بارعاً للأصوات بكل نبراتها، كأنه خلق ليترك لك سمعه تحشوه بصوتك، وأنا واثق أنه ينتبه لنغمة صوت المتكلم أكثر من استماعه وتفكيره بالذي يسمعه، خرجنا من الغرفة بعد أن أغلق حسيب الباب خلفنا، وقادني مثل أب هصور يمسك بيد ابنه نحو الغرفة الثالثة، وما إن دفع الباب حسيب حتى تداخلت الأبعاد الهندسية للغرفة، وصارت مفتوحة على الغرفة الرابعة وبينهما يمتد

ممر سـريّ تم تمويهه بالضوء بشـكل غريب، ويمتـد هذا الممر إلى القبة الفانوسـية في وسـط الحوش تماماً، تلك القبة الغريبة التي طالما تخيلت حسـيب فيها يسروي لأختيـه بطولاته، وهو يدخن بشـراهة، ويرسل سعاله مثل تعويذة لطرد المتلصّصين عليه، أو أنه يروي لهما شـغفه بالفوانيس العتيقة وأسرار الجلوس داخل فانوس، لا أعرف ما الـذي حدث تماماً حين دخلنا أنا وحسـيب إلى الغرفـة التي يمتد فيها الممر، وتبين أنها تضم الغرفة الرابعة بشكل هندسي فريد، تتداخل فيه الأفاريز والدعامات الأسـمنتية والفولاذية، وتتوغل في هذه المساحة تيارات ضوئية تظهر وتختفي مثل برق خاطف، كنت أحاول الإحاطة بالصورة الكلية للمكان، لكن فشـلت تماماً، وأدركت أن حسـيب يفهم أني أشـعر بضياع فأمسـكني من جديد بقوة، وقادنـي لعمق الغرفة، ودخلنا في الممر السـري الذي أفضى بنا إلى القبة الفانوسـية، جلسنا داخلهـا واحداً قبالة الآخـر دون كلام، كنت أترك روحي تخوض في هذه القبة الفانوسـية الغريبة المزجّجة، شعرت أنها بقعة تطوّقها هالة من الحكايات والسـعال ودفاتر الذكريات السـرية، بقينا صامتين، ثم انفتح الباب الخارجي للقبة ودخلت سدى تتبعها خيرونة وجلستا قبالتي تماماً، وهنا نهض حسـيب ووقف وسـطنا تماماً، وصار يدور ببطء وهو يقول، كنت أبصر شـفتيه تتحركان؛ لكن لم أكن أسـمع أي شيء تماماً، حاولت أن أفهم هل هذه القبة تقوم بعزل الصوت في الداخل، أم أني ملفوف بدوار صامت عميق يفصلني عن مواصلة متابعة حسيب وصوته، كنت فقط أستشعر مطراً من أصوات الصفيح، يخترق قلبي

الصــوت.. يختــرق لحم قلبي بقسوة فادحة، ويجعلنــي أرتعش... كان الصــوت متبوعاً بوجوه قردة المكاك وهي تعمل بصرامة كبيرة على قص علب الصفيح، وكنت أبصرني وجهاً محشوراً في اللوحة الكونية التي شيدها حسيب في ممر بيته، تلك اللوحة التي تحاكي غابة البشرية الأولى، وجوه مخرزة ببعضها، لا تســتطيع فهم من يتبع من؟ هل هم ذاهبــون أم خارجون؟ تلك اللوحة بقيت عالقة بوجهي بكل تفاصيلها، وها أنا الآن لا أفهم هل أنا أدس وجهي في اللوحة؛ ليحنّطه حســيب، أم أن اللوحة المخرزة دســت تفاصيلها في وجهي وهي تتســرب عبر أوردتي وشــراييني؟ كنت أفقد الوعي رويداً رويداً، وأندس في زحمة الوجوه الصفيحية الراكضة نحو الدخول والخروج معاً.

لوحةُ لظهيرةِ الصيف

تحـت أديم الليلة الأولى اهتزت شـجرة الصمت أمامي، وتسـاقط منها فصل الصيف الثالث، ومعه تساقطت أزمنة مخضبة بلذة المياه، ورائحة الدفلى.... عابراً نحو شجرة الكلام كنت وحيداً أراقب اهتزاز الأغصان.. خوضت عيني في الأرض، شاهدت جذور الفراغ الممتد بين البوح والكلام، فراغ مسـكون بوحشة قاسية.. كانت الليلة الأولى من فصل الصيف ومعها تسـاقطت المسـافة الواصلة بين تلك العتمة وبقعة الضوء الوحيدة التي كانت تسقط في باحة بيتنا الشرقي.. كانت جدتـي ذات الثمانيـن عاماً بقامتها العظيمة وجسـدها الضخم تفترش بقعة الضوء تلك.. فتتساقط من فم البوح مسافة الصمت المرتعشة...

جدتـي تقول لي دومـاً كلما احتضنت وجهي الغائـب، إن البيوت

الشــرقية تشبه دعوة لا تتوقف عن الصعود إلى السماء.. كانت توزع لحظاتهــا الحميمة حول وجهي.. وعلى الرغـم من أني في الثالثة من عمري بيد أني أمسك بتفاصيل ذاك اليوم.. يوم واحد قررت أن أدوّن فيها أطياف جدتي وهي تبوح لوجهي الغائب عن الفراغات المسكونة بالصمت والوحدة المريرة..

كانت تعيد ترتيب تســاقط الأشياء حول وجهي بقوة ودفــء كبير، حتى صارت فتحة الضوء الساقط على البيت الشرقي مساحة أولد فيها باللذة والمراقبة المستمرة لخيوط الشمس وهي تكشف لي عن كائنات تنســلخ من أشــكالها.. تحت بقعة الضوء كان هناك عالم ضاجّ بحركة كبيرة.. صور صاعدة نحو الأعلى تلك الكائنات المتنوعة والأشــكال المنســلخة لعبتي الوحيدة.. أجلس كل يوم لأرســل عيني نحوها، وأنا أتلــذذ بهــا صعوداً نحو الســماء كانت تتحرك بعنفــوان.. يا ترى هل جدتي تقصد بالدعوة المستمرة هي تلك الكائنات التي تجد في الصعود تحت بقعة الضوء والخارجة من باحة بيتنا الشــرقي بخيوط عمودية؟ كانــت بقعة الضــوء العمودية تجعل تلك الكائنات واضحة، وتكشــف عن ســيرها الإيقاعي.. تناســق باهر وأخاذ تدور بشــكل سحري أمام ناظــري حركتها هــي ولعي وولع وجهي الغائب والدعوة المســتمرة نحو السماء.. كما تقول جدتي همي الوحيد...

في كل صباح صيفي أســتيقظ وأنهض مسرعاً من فراشي وهارباً منــه نحــو بقعة الضوء تلــك، وفي ظهيرة الصيــف الأول غابت تلك العوالم في ذاك اليوم، وحل محل الضوء المسفوح على الباحة كرسي

خشبي كبير يليق بجدّة عظيمة لها سالفان أشيبان طويلان.. الكرسي يبدو لي مثل تلك الشجرة حين تتساقط عليها أشعة الظهيرة لتتساقط منها أطياف وكلمات وملوك وخيول وقردة وقطعان ماشية.. ولعب أطفال متنوعة وموقد حجري وحيد... تفوح منه رائحة شتاء بعيد..

الكرسي تحت بقعة الضوء عارٍ.. تحركه الريح، يهتزُّ قليلاً ويرسل صريراً له إيقاع مهيب يتناسب مع حجم جدتي ذات السالفين الأشيبين.. الكرسي يختصر الحياة أمامي بسحره وحركته.. كان الكرسي صاعداً نحو الشجرة المهتزة، وحيناً آخر كان يشبه كلمات ترسل طقساً من الضوء وآخر من العتمة لوجهي الغائب لتتشكل فراغات جديدة ومهولة حول وجهي في ذاك اليوم الصيفي الوحيد.

***

أول ظهيرة في ذاك الصيف جلست أمامي، فأرسل الكرسي صريراً عميقاً وصل حتى بلغ عام (255 هجرية) مكتسحاً مساحات البياض العميقة ومشكلاً عتمة أخرى ينتحب لها الصمت.. كانت جدّتي هي المرأة الوحيدة التي يسبق وصولها عطرها، ذلك العطر المستخلص من أزهار الدفلى.. العطر له بريق الصمت والوحدة وكثبان الرمل المتحركة وله سحر العتمة.. عطرها يخترق بحيرات المياه والينابيع، كان جارحاً لبقعة الضوء فوق الكرسي، حيث أنتظر حضورها.. بقعة الضوء المسفوحة بعناية فائقة تعيد تشكيل الخرائط، وتعيد تركيب الوجوه ومنها وجهي الغائب...

يقول أبي: جدتك الوحيدة التي تضع يدها في إناء الحليب المغلي وتحركه بيدها، والوحيدة التي تصمد أمام هيجان الثور المربوط خلف البيت الشرقي حين يفرّ من أمامه عشرات الرجال، وتعرف خرائط العالم دون أن ترى تلك المدن والبحار، تجيد الفرق بين المحيط الهندي والأطلسي، وكانت تحكي لهم عن حيوات الأعشاب القاسية، وتعرف أنواع الطيور ومواعيد هجرتها السرية والعلنية، والفرق بين السباع والهوام والوحوش، على الرغم من الفرق المعجمي الدقيق بينها، وهي الوحيدة التي تتكلم عن ولع الجاحظ بالرسم، وتمتلك لوحة للجاحظ رسمها حين هام على وجهه يصور فيها الكعبة المشرفة، وقد بدت فيها أجساد زنوج من الحبشة يطوفون حولها والمياه تغمر أجسادهم السود تحت أشعة الشمس، وتبدو سواعدهم المفتولة وهم يرفعون أذرعهم إلى الأعلى، وعيونهم معلقة في الأفق البعيد، وتتكشف أسنانهم عن ابتسامة صميمية، من خلفهم تظهر بعض الجبال المحيطة بمكة، جبال متناسقة الأحجار والأحجام في يوم صيفي... كانت تجيد الكلام عن بقعة الصمت.. المرسومة... والبوح... والضوء العمودي الهابط على كرسيها الخشبي..

ببساطة جدتي الوحيدة التي تجيد اختراق بقع الضوء والصمت الموشاة بالحيوات الصاعدة نحو الأعلى، ونحن متبوعون خلفها بكل بهاء نبصرها.. ترسل كلمتها في الظلمة، نبصرها تجوس بنعليها تلك المهاد الضاجة بالحيوات.

***

أتهيأ للجلوس في حضرتها، أفتح أذني عن دهر صامت ليقع فيها من بوح الشجرة.. قالت لي بعد أن أفردت شعرها الأبيض، وأخرجت مشطها الخشبي الصغير، وراحت تمشط السالفين بخفة وسحر... تقول:

في تلك الليلة الصيفية شاهدت فتى له سبع سنين اسمه أثر بن عمرو بن بحر. كنت أعرف أنها تصعد بي إلى الأعلى والعالم متبوع خلفنا، وفي أذنيّ المتيبستين تتساقط حيوات وتفر عوالم.. كلماتها تهرول في شقوق الصمت المرتعش، وتملأ الفراغات المحتدمة بين ثلاث سنين، ثم واصلت، كان فتىً نحيفاً ذا وجه يشبه قطعة فسيفسائية كونية، كان وجه الفتى عبارة عن آلاف الوجوه الحيوانية المحتشدة في وجهه، وكانت تتدافع بوجوهها المتنوعة ليطل وجه الفتى الغائب، كان لونه حيوانات فقط تدافع بكل شيء لتطلّ من تلك الملامح.. تحتشد بكثافة الصمت، كان حافي القدمين يسير في درب، ثم يبتلعه درب.. حتى سار متبوعاً من زمان إلى زمان بحيوات تسير خلفه وهو يرفع عينيه نحو الأعلى، ويلقي بكلمات نحو الأعلى لتشرخ الحقول المتناثرة حوله ويعيد للضوء وهجه وللعتمة نصيبها.. والظلمة تترامى أمامه وخلفه تنهض حقول وتهرول أسراب وقطعان، ترسل صرخات مرتفعة وندية.. حيوات ترتفع من كلماته ومن عينيه، ترتفع وترتفع، ويُسمع لها صوت وصوت له صمت.. كان يسير غير آبه بمن خلفه، مشغولاً بتفاصيل وجهه، يمد يديه نحو وجهه، يتلمس العالم بكل حيواته راقداً فيه. كان الفتى يزرع مساحات الصحراء

التي يجوسها من حوله بالمدن والمياه اللاهثة نحو أعماق الأرض ثم سكتت وقالت هو أثر بن عمرو بن بحر.. سليل المساريد والمراوي والسير، سليل الطين والمياه.

***

ثم كانت ليلة أثر الأولى في البيت الشرقي، وعلى سطحه ضربت قبة قماشية تحيط بها دمى وألوان قزحية، تسيل بخفة ووداعة صارمة، تسيل نحو الأسفل.. كان ضوء القمر منتشراً حول السطح.. في تلك الليلة كان أثر في الثالثة من عمره وفتح عينيه في ليلته الأولى على السطح الشرقي، وتحت أديم الليلة كان مأخوذاً بالنجوم المتناثرة حوله، وباحثاً عن عطر الدفلى الذي يطوق حضور الجدة.. يحدّق ملياً في السماء.. بعد ساعتين أحسّ بحرارة تجري في عينيه، كانت عيناه تتورمان وتكبران بقوة وغرابة، وأمه من حوله تصاب بخوف وغرابة من وجه أثر الراقد بين يديها الواهنتين، ترقب حرارته المتسارعة نحو مهاد السماء وخرائط الليل الصيفي، أخذ يبكي لعطر الدفلى.. كان أثر يعي أنه مريض لكلماتها، لتشرخ له الظلمة وتفتق أمام عينيه الوجوه المحتشدة في وجهه الغائب، وتنحر له الدهشة وأعوامه الثلاثة وليله الصيفي الغريب...

نهض أبوه صارخاً بأمه أن تبعد أثر عنه، ابتعدت أمه عن السرير، وتحت ضوء الصيف القمري ارتفعت حرارته أكثر وأكثر، وارتفع صراخه، ثم اقتربت رائحة الدفلى، هبّت الرائحة لنهوض الجدة من

رقادهـــا، استشـــعر اقترابها مـــن حوله، وعطر الدفلـى صار يلامس روحـــه وحـــرارة عينيه المرمدتيـــن... تناولته الجـــدة وهي تعرف أن وجهه الفسيفسائي المشكل من آلاف الوجوه صار الآن صاخباً بهجرة ســـرية نحو أحشاء الظلمة الراعشـــة.. كانت حيوات الجاحظ الصيفية تهاجـــر.. صاخبة في أصواتها البرية تطلق صراخـــاً حاداً يمزق ليل الصيف الحيواتي....

انتبـــه أثـــر لوجه الجدة، فوجد عشـــرات الوجوه من قـــردة المكاك الآسيوية تطلّ من خلف الجدة العظيمة، وتلامس أكتافها حيناً وتتدافع لتطلّ فوق وجهه.. وبرها الفضي يلتمع بوحشـــية تحت ضوء القمر.. أنفاســـه ترتجف من عيونها المحدقة فيه.. وعيون القردة مفتوحة بقوة وهي ترســـل أصواتاً لينة لتلمس أصواتها وجهـــه. أخذت الجدة تتمتم بكلمات سرية ومتتابعة، تمزق حضور قردة المكاك من حوله، كانت الكلمات تحدث فيه رعشة تنساب من حوله، والقردة تتراجع من خلف جدتـــه مذعورة بهمس الجدة، وقرب وجه أثر همســـت الجدة بصوت مرتفع قليلاً:

«يا أثر..... يا أثر

أيها الوجه المتناثر... في سديم المساء والصيف

أيها الوجه الضاج بالصراخ... والاحتشاد

أيتها الحيوات المهرولة نحو آماد بعيدة...

لا تخفْ بني... إنه العالم... يحول ساقيه من مكان إلى آخر بعد طول مقام».

***

فـــي تلك الظهيـــرة عادت جدتي مـــن رحلة الحج الثانيـــة، ومذ أن وصلـــت لم تتوقف عـــن التحديق بوجهي، وأول من احتضنت من بين جميـــع الصبية المحتشـــدين أمام البيت، وأنا أراقـــب وجهها وما الذي تغير فيه، كنت أتخيل الحج في غيابها محمولاً على كتفيها العظيمتين، ومـــن خلف الحج تجلس ملائكـــة على أكتافها تلـــوح بكلمات تعيد لي تفاصيـــل مفقودة من رحلتها.. دخلت للغرفة وجلســـت ثم فتحت حقيبة جلدية، ودسّـــت يدها فيها وناولتني كاميرا صغيرة.. تناولتها وجريت مســـرعاً نحو ســـطح البيت الشـــرقي، والعالم كله بين يـــدي يرتعش، وأنـــا أحتضن الكاميرا الصغيرة.. توقفت تحت وهج الشـــمس ورحت أحدّق فيها، كانت خضراء اللون، تتوسطها فتحة شفافة، وفي الأعلى عتلة صغيـــرة للضغط، وضعت إصبعي على عتلـــة التحريك، كانت كل ضغطـــة على العتلة تحرك عتلـــة صغيرة أخرى داخلها، فتتحرك صـــور داخلها، كانـــت هناك ثلاث صور خلف بعضهـــا مرتبة بعناية فائقة وتناسق كبير يوحي بالنوم تحت أديم الشمس في تلك الظهيرة.

اللوحة الأولى:

جدتي تجلس على كرسيها في البيت الشرقي، تحيط بها قطعان لا

تحصى من قردة المكاك الآسيوية، والظهيرة اللاهثة من خلفها تطل بفداحة تشبه حدقات القردة المفتوحة بشكل بيضوي على العالم.

اللوحة الثانية:

كرسيها الخشبي وهو فارغ، والأشعة تتساقط بشكل بيضوي على أطياف جدتي، وأزهار الدفلى منتشرة في المكان وقد تعلقت بسيقان الأزهار، مدن وحقول تهرول فيها كائنات نحو الظهيرة القائظة.

اللوحة الثالثة:

كان أثر بن عمرو يحرك وجهه قرب وجه الجدة، فتنهض حيوات في وجهه المحموم، يلتمس بيديه عطر الجدة فتركض الظهيرة وتجري خلفها البيوت الشرقية، وبدت من خلفهما السطوح خارجة بعري الظهيرة، ومغسولة بمياه سرمدية. كانت البيوت في نهاية الصورة تسلخ جلدها وتكشف عن عمر امتد 33 عاماً...

بعد آخر صورة رفعت يدي وبقيت عيني معلقة على الفتحة الشفافة للكاميرا، فتحركت العتلة وحدها ودارت عتلة التحريك في داخلها بقوة كبيرة، ثم تداخلت اللوحات الثلاث أمام ناظري، ثم توقفت لتطل لوحة مرسومة بدقة وبراعة لونية تمتزج في عيني... كانت اللوحة التي رسمها الجاحظ آخر أيام حياته.. جالساً على الجبال المحيطة بمكة وقد شرع برسم زنوج من الحبشة، دخلوا الإسلام حديثاً وهم يطوفون

حول البيت العتيق في موسم الحج.. كانت اللوحة فنية الظلال وألوانها الساحرة تعكس عشرة رجال يطوفون، وقد ظهرت سواعدهم المفتولة تحت وهج الظهيرة، وقطرات العرق تنحدر من رقابهم... وعيونهم تحدق في أفق الظهيرة، بينما شفاههم ترسم ابتسامة صميمية.. في طرف اللوحة من اليمين يظهر جزء من برد الجاحظ بلونه الأبيض، متبوعاً بحيوات سرية في وهج الظهيرة القائظ.

لوحَف أو صورةُ اليحموم

مـن كان يصـدق أن جِرار الحبر المترعة سـتتحطم وتسـيل في الطرق والأزقة وعلى الوجوه، وستواصل اندلاقها حتى تنزل في نهر دجلة.. أحبار يوسـف ذنون تسـيل في كل الدروب وفي مقدمتها حبر اليحموم.. تتناقل الألسـن أخبار اندلاق الأحبـار، ويصل الخبر لأذن حامد الآمدي فيجمع حوله النسـاخين ويجلسـون في صفوف متقابلة، ويترعـون ريشـاتهم من جرار الحبـر العثماني المعتَّـق، ويفتضون الصمـت بصوت القصبات، فينتبه يوسـف ذنـون لصوت الصريف وهو يشق الجلود والرقاع، ويهرول بين النهر وتل التوبة رافعاً يديه، ويدعو ألا يغمر حبر اليحموم نهر دجلة.

كانت يده تمتدّ في ذلك الفراغ الموحش.. تمتد دون أن تكون قادرة

على تحسّس تلك الخدوش والنتوءات والكلمات التي شقت جسد الورق، كانت يده تستشعر الهواء الذي يلامس سرعة يده وهي تهوي، وتشق عتاقة الفراغ من حولها، كانت يده فارغة تماماً. يد خشنة متشققة.. يابسة وعروقها بادية بشكل فادح... كانت يداه فاحشتي العتمة...

لم تستطع يداه حتى اليوم تلمس تلك الخرافة التي تقول إن الألوان مختلفة، وإنَّ لكل لون ملمساً خاصاً، حاول مراراً تلمس تلك الخفة التي يتحدث عنها العميان من حوله، لكن عبثاً كانت كل محاولاته، وترتد يده إليه بعد كل محاولة فيضمها إلى صدره بقوة، كانت علاقته بيده مختلفة عن الجميع، فكانت بالنسبة إليه أداة استشعار لهذا القعر الكبير.. قعر يتوغل عميقاً حوله يبتلعه بعمق عاصف.

يده تحاول الإمساك بتلك الحدود التي يتحدث عنها الجميع كانت يده تمتد كل مرة في ذلك الفراغ البارد من حوله، ولا تلمس إلا عمقاً منطمساً تماماً، كانت يده بمثابة أداة استشعار كونية يطلقها كل لحظة ليلمس بها هذا العناء والوهن المتطاول من حوله، كانت الحياة بالنسبة إليه مستورة ومخفية، تشبه قطعة قماش مطوية بعنف، ويداه المحمومتان تبحثان عن عوالم غير منطمسة وغير مطوية يتحسسها، لكن دون جدوى..

كان لوحَف كفيفاً منذ الولادة، مقذوفاً به على أطلس الحياة، كبيراً وطاعناً في غيهب هذا العالم من حوله، كما قال له أحدهم ذات يوم. كان صاحب جسد كبير نسبياً، مظلم البشرة، قدماه كبيرتان وإبهام قدمه اليمنى مبتور، يجد صعوبة في السير كأنه يشخص بعرجه حين

يسير، ظهره مقوس قليلاً حتى صار مندغماً ومتلاشياً مع عصا يده.

هو الكفيف الذي –/ يجوب / (*يجوب هنا لا تعني بالضرورة أحداً ما يسير بكثرة قاطعاً الطرق والقفار كلها، إنما تشير إلى رجل شكله أقرب إلى بهلول متوشح قطعة قماش بصدره، تمتد حول ظهره وبطنه، يقطع الأحلام والمياه وأحياناً يمسك الأنهار من خاصرتها ليكشف جفافها العميق*) – الأرض كل ليلة باحثاً عن متعة الاكتشاف المهولة، وعبر يده متعته الوحيدة كانت تنطلق ليلاً، حين يندس في فراشه ويُحضِر بقربه الكثير من الأشياء، ويبدأ بممارسة لعبته في التلمس، وفي كل ليلة يدشن روحاً جديدة، وتفلت منه تفاصيل السواد، وتفلت منه أرواح كثيرة كان يدرب يديه على فاتحة الاكتشاف.. يسبر عروق التحسّس فيهما، يحاول نقل صورة العالم عبر يديه من خلال الأشياء التي يتحسّسها..

كان يحاول جاهداً أن تجوس أصابعه الخشنة كل الأعماق والتفاصيل والندوب والشروخ في تلك الأشياء، يحاول تلمس لحظات الدفء ولحظات البرد.. كانت تلك متعته في اكتشاف تسرب العالم عبر يديه، يراقب بكل فداحة صورة الحياة، وهي تصعد نحو قلبه الطاعن في العماء، وتستقر مع الذكريات المنطمسة والساكنة ذكريات بدون أي لون، ذكريات أشبه بالشيء الفاتر... الهرم... والمترهّل الذي لا يتحرك، فقط شيء مستقر في قعره دون أي طعم، فهو ما زال يكتشف صورة العالم، ويحاول فك أسرار التحدّبات والانحناءات والتقعرات في الأشياء التي يكتشفها.

تعوَّد لوحَف أن يســمع من الأفواه التي تملأ الفراغ المحيط به، إن لــكل لــون خصوصية، ولكل لون عالماً خاصاً لا يصل ســاحله أحد، ولكل لون خدماً منذ الأزل وعشاقاً يهيمون به، وعبيداً يطوقون عزلة الألوان ويشبعونها كلاماً، ليس كالكلام كلام يدور ولا يُدارُ عليه، ولا فوقه كلام ليس بالساخن الفاحش، وليس بالبارد المتحجر، وحين تفتح الألوان آذانها تشتعل أعماقها المتوهجة بالصمت، فترتوي في حضرة الكلام ســيرتها، وتئزّ وتئنّ من فرط أثر الــكلام عليها، فتنهض من مقامها مصحوبة بالأحلام وجذامير المياه، تنهض وتســتحم بنفســها، وتــروي وترتوي، وهكذا يصيــر لكل لون أكوان متناثــرة، لم تجمع حتى اليــوم، تناثرت بيــن المدن والطــرق والتصدعات والتشــققات والوجــوه – *والأطالس/ البعيدة وحين أقــول أطالس فهي لا تحيل إلى ذلك الســواد المتناثر في المعاجم، إنما تعنــي خرائط تتمزّق، ويحاول البهلول جمع تلك التشــققات العاصفة، فأطلس لا تشير هنا إلّا إلى هذا الشــعاع الأسود الذي لا يبصره من يجيء من الخلف* – هذه الأحاديث كانــت تخترق روحه، ويحاول جاهداً تلمس قعرها المفتون والعميق؛ لكنه لا يتقن الوصول لتلك الأعماق القصية الموشحة بالدفء، يحاول اســتحضار كل الأحاديــث التي ترصــد الألوان، وخاصــة هذا اللون الأســود.. هــذا الكائن الحزيــن والمقطب والعابس الوحيد المحشــور فــي هامش العالم، كما تخيله طول حياته. اســتحضر أقاصيص العبيد وثورات الزنوج والتمايز الطبقي، استحضر كل الشخصيات المعتمة البشرة، استحضر كل تلك التفاصيل، وراح يقلّبها بين يديه، وفي تلك

الليلة الراعشة أولج يده في جيبه واستخرج «بطاقة معتمة»[1] مثل الفراغ المحيط به، بطاقة مستطيلة بحجم الكفّ، كان قد حصل عليها في صبيحة يوم شتائيّ عابس الوجه، يوم شتائيّ يتيمٍ مرَّ في جوف صيف غريب محشو بيوم بارد، جلس معتكفاً ومطوقاً روحه بكل تلك الرؤى والأحاديث التي رسمت سيرة هذا اللون، جلس وشمَّر عن روحه الباردة، جلس لتتلقفه الصور والمياه والألوان والخطوط، وقرر اكتشاف هذا اللون والسياحة في هذا الظمأ خائضاً فيه..

يقال إن العرب كانت تنظر إليه بأنه ليس لوناً، بل روحاً جحيمية، والكفيف لا يرى شيئاً سوى حلكة الفراغ، ويقال أيضاً إن هذا الفراغ الموشح أول ما اكتشف بعد حريق هائل حين نتج عنه الرماد، تلك الخلاصة الغريبة التي تتركها النار بعد أن تلتهم كل شيء، يبقى ذلك الرماد فسمّته العرب رماداً أو سخاماً أو هباباً... وهذا السخام الأول هو أصل هذا اللون، تكوّن بعد أن توقفت النار فتحلّق حولها الناس من كل مكان، فكانت لحظة اكتشاف السخام أو الهباب، فنهضت على إثر هذا الحدث سيرة أولى لهذا اللون - ***لون الأرامل والعوانس ولون بعض الأرواح، كما قيل له ذات يوم لون الشر المحض/ ألوان الأرامل هنا لا تساوي أبداً دلالة اللون الأسود أو القماش الأسود الحالك حين ترتديه***

1 - البطاقة المعتمة: هذه البطاقة ليست بطاقة علم الباراسيكولوجي في اختبار الحواس والتعرف إلى الألوان وأنت مغمض العينين، إنما هي ورقة لم تتعرض للافتضاض من قبل ريش النساخ، إنما هي ورقة لونها الأصلي هكذا لم تصبغ به، ولم يلونها أحد عابر في ليلة عابرة، إنما هي بذاتها أطلسية اللون.. دلماء الملمس امتلكها (لوحَف) قبل رحيله، وقبل أن يلتقي يوسف ذنون.

الأرملة على جسـدها، وتلبسـه على روحها العانس، بل هو عاصفة صامتة تجـوس قيعان الروح التي يطاردها لوحَـف ــ تلمس البطاقة بأصابعه، مرّرها عليها محاولاً تلمس تلك التصدعات والنتوءات التي حفرت سـيرة اللون، حـاول بكل عمق أن يلمس تلـك الحكايات التي شـيدت معمار اللون، مرر أصابعه طولاً وعرضاً على بطاقة اللون، ثم أتاح الفرصة ليده الثانية أن تشـارك في تلك الاستكشافات القصية، تلمسها بكل أصابعه. تلمس روح اللون وهي تصطدم لأول مرة، شعر بأصابعـه تنغمـر في روح اللون.. شـعر بروحه تدخـل لتلك البطاقة اللونية. شـعر بنفسـه تندس في اللون وتنغمس فيه، شـعر أنها تشـبه عزلته الفادحة وفراغه الغامر.

كان استشـعاره للّون يشـبه استشـعاره لطعم روحه التي تئن ليل نهـار، كان اللون نسـخة مطابقـة لأعماقه.. كان هنـاك يقف في تلك الاندهاشة برفقة اللون، وقد زعم الأعمى أن اللون أخبره حين تماهى معه /الأسود/ ليس لوناً يا صديقي، إنه اسم فقط كان في البدء، إنه مثل أي اسم آخر، لكن الغريب أنه مع مرور الأيام وتعاقب الفصول دارت روحي معه، ودار اسـمي معه برفقتي أيضاً، وصار يُسمع لنا صوت احتراق وطقطقة أخشاب تشتعل بكل قوة.. كنا نحترق ونصدر صوتاً فاحشاً في ألمه.. صوتاً يشقّ الكسل من حولنا.

سيرة حبر اليحموم:

يقـال إن كبير الخطاطين في ذلك الوقت يوسـف ذنون قد بلغ من

الشـــهرة باباً واسعاً، وتطايرت سيرته في الدروب والأسواق، حملتها الريـــح للبوابات العالية التي تحفّ بها كبرى الأمنيات، كانت ســـيرته محمولـــة على الريح، وبعيداً عن ســـيرته وقريباً من أســـرار براعته الخطية، يقال إنه أول من استخدم حبر اليحموم، وروى لتلامذته كيف استطاع تخليص هذا الحبر، وكيف فصّده من جبين لوحَف.

في ليلة اشـــتد فيها المطر أصابت المدينة حمى الأطلس، وتناذرها الناس وصاغة الذهب الذين أقاموا علاقة سرية بين الأمراض الجلدية والعلاج بالذهب، وُسِّـــد لوحَف في فراشه فسَرت همهمات في أرجاء المدينة بموته، وأطرقت الرؤوس تنتظر الخبر اليقين، فقيل إنه مات، وقيـــل إنه ينازع، وأحضِر له الطبيـــب الكبير، وحين جلس بقربه قال دعوني أقلبه بين يدي الحكمة، وفعلاً أخذ الطبيب يجوس بيديه جســـد لوحَـــف وهو يقوم بحـــركات غريبة، فرجع نفس لوحَف وشـــهق بقوة كبيرة، فقال دعوه ينام، دعوه يرقد، فريح الأطلس فاحشـــة حين تهب وحيـــن تصيب القلوب وتخلع الرؤوس، وبعد ليلة واحدة صار لوحَف يتعرّق ويســـخن جبينه، فأمر لوحَف الجميع بالخروج، وأجلس بقربه يوسف ذنون فقط، وصار لوحَف يتعرق... ويتعرق... فنهض يوسف مســـرعاً وأحضـــر إناءً صغيراً وضعه أســـفل ذقـــن لوحَف، وراحت قطرات العرق تنســـاب وهي ســـاخنة من جبين لوحَـــف، وهكذا حتى حلّ الموت بين عيني لوحَف وأشـــرقت سيرة الرحيل، وتوقفت سيرة لوحَف... حمل يوسف ذنون الإناء الذي جمعه من وجه لوحَف، وهرول في قاعة القصر وهو يهمهم مفتوناً بسرِّه وخائضاً في لذة القادم، وقبل

أن يُدفن لوحَف كان يوسـف ذنون ينزع ريشـته من إناء التعرق الذي فصده من جبين لوحَف، جلس يوسـف ذنون وارتجت أمامه الخطوط والمسـافات، ارتجت بحضرته الحروف وتلقفته سيرة حبر اليحموم، فراح يفتض الجلود والرقاع، ويفتض البياض بالسـواد، ويقيد صوت الصريف، كان يستشـعر أثناء التدوين أن الكلمـات المرصوفة برقة وعنـف معاً على الورقة تتعرض لعملية افتضاض فاحشـة، يقوم بها اليحموم للبياض. كان اليحموم يتزوج في كل كلمة وحرف ينزل على الورقة، هكذا كان يشـيِّد اليحموم صورة الصـوت والمعنى، يحضر صوت الصريف وهو يمزق تلك الغشاوة الرقيقة للبياض، كان صوت الصريف ينسـكب في أذنيـه... يتخيل تلك اللحظـة ويدمجها مع فعل التدويـن، فتكوّن تدوين وصريـف حكاية بطلها اليحمـوم يهبط على الأوراق؛ ليفتض بكارتها الشفيفة في ليل /أدْلَم/ *أدلم والدُّلمَة تعني فعل يتم بسـرية وغلسة مركبة من الليل والسـر، فالصوت الذي ينتج من دلمة الصريف لا يسمعه غلمان اللغة..*

وبينما هو يشـقّ جلد الكتابة بصوت الصريـف الأدلم، وبعد جهد رفع يده عن المكتوب، فكانت عبارة قد خطت بشـكل ساحر ومدهش بعيداً عن الانحناءات والتحدبات في الحروف، كانت العبارة تطلّ بكل وحشـية وقسوة هذا هو حبر اليحموم المتفصّد من حمى الأطلس.. لن يَكتُـب أو يطرِّس أو يقيِّد، بل مهمته الافتضاض وإشـارته الصريخ.. وتحتهـا بخـط أصغر حجماً كتب هذا الخـط *ليس الرقعة أو الثلث أو الكوفي أو النسخ أو الديواني ولا الطغرائي، إنما هو خط اليحموم.*

ترك يوسف ذنون رقعته الجلدية، وغاب عنه تلامذته، وتفرقت محابره المترعة بالحبر من كل صنف ونوع، اندلقت في السواقي والطرق والأنهار والبحيرات، تفرقت قبيلة المحابر عنه، سالت سيرة حبره في كل الأصقاع، تناذرها الخطاطون الأتراك، وطارت الريح بصوت نحيبهم على كبير سدنة الخطوط في الموصل يوسف ذنون، وتفرق عنه الكَتَبَة والنساخون الذين كانوا عن يمينه تحلّق فوق رؤوسهم طيور الحكمة. كانوا يجلسون في كل صباح ليترعوا محابرهم وريشاتهم من حكمته.. تفرق عنه كل شيء وبقي وحده ثم هام على وجهه، ويقال إنه شوهد آخر مرة وهو يرسم لوحة لمدينة وهي تمسح وجهها باليحموم، ويقال أيضاً إنه شوهِد وهو يغسل محبرته فوق تل التوبة برفقته صورة فذة للمدينة قبل أن تغتسل باليحموم، وقبل أن تتفرق سيرتها وترجع لجذمور المياه.

حصادُ الغرقى

(في غيابك تولد طقوس مخيفة يسميها
ابن منظور في لسان العرب بالحشرجة)

إنه يترك كل شــيء ويغـادر، ليحدّق في تلك الأشـياء التي ظلت صامتة، فينسـل من بينها ويغادر أجفانه التي أطبقها، ويترك الأرض تـدور كما ينبغي لها أن تدور في كل لحظة، إنهم يعودون كي يبتلعوا عجزهم...

***

ظلت البيادر عشـرين عاماً تسـتمطر حضـرة الأرواح، لتدوس بخطاها على القيعان. في كل طرقات البلدة وتحت جلود الفقراء كانت سـنون القحط والتوابيت مخبـأة بعناية، حيث تموت الابتسـامة فوق الشـفاه البائسـة. لتترك المناجل مذعورة من الكسل. فترتعد الأجساد تحت وطأة حزن النسـاء، فكانت العربات تدق طبولاً، وتملأ الأكواخ

قحطاً وسعالاً، فتمتد الشواهد الرخامية فوق السفوح والتلال، كلمات تنذر بالظلمة، فتشرخ الأرض وتفتح بوابات جديدة للموت، تمشي فوق جسور الخشب. خطوات تبعث بصدى صوتها من أتون مقبل، لذا سأرسمهم جميعاً دمعة سوداء على خدي. وأثبت لك أن هذه الوجوه هي التي تعبث بأسرار الليل وضنك الوجود، ولدوا كي ينحتوا خطاهم في ضجر المسافات التي تولد من جديد، فنركض خلف الذين يغادرون في غبار المسافات. ويطلقون كلاب مخيلتهم علينا لتنهش من خلف الأسوار الجثث التي واريناها التراب، وتركنا بضعة قبل ملتصقة بالصناديق الخشبية وهي تتوارى في قعر الظلام.

الأرض تدور وكل شيء من حولنا يدور، تنمو الحياة وتشيخ على حدقات العيون، تلك الأمنيات التي لاكتها العربة وهي تسير بوحشية هادئة، ينمو الفراغ ليعرّي في دواخلنا تلك الكائنات التي تئن بصمت خشبي عتيق. فتؤسّس للحياة العظيمة. بين وطأة القدم وانغراز الإبرة في تلك الأجساد المتيبسة التي ألجمها عرق الكدح الطويل. منذ نعومة الأظفار وحتى سنين القحط المتيبس تحت الذقون الكثة، وهي تلهث من الصباح الباكر خلف العربات. والأرض التي وطئوها بأقدامهم المتفطرة لم تنبت يوماً سوى البكاء والموت المتراخي. لتؤسس فضاء تجرح فيه الأرواح، ثم ينتقل عبر صوت البكاء المرّ الذي تحمله الأوراق في فصل الخريف، فتظهر صور أولئك الرجال الذين سافروا على متن الغيب. وهو يحرث أجسادهم ويترك محراثه معطلاً بين ثنايا الضلوع.

تتعرى البلدة وتلقي بوطأة الحداد المرير على تلك الظلال التي أخذت قاماتها تتسامق السماء، حدث هذا منذ أن بدأت العربات الآشورية تمر من هناك، قبل أن تتكون البلدة، فكانت ذرّات التراب التي تثيرها العربات وهي محملة برفات الأموات والبهاليل تكون (تل التوبة)، (وتل قوجاق)... فبدأت تعلو وتعلو.. فآثرنا البقاء خلف الأبواب...

لم نكن نسمع سوى صوت تلك الجراح الندية، وهي تستلقي في دواخلنا، وتفتح بوابات سرية للجوع والحرمات، بوابات فتحها الخوف، لم يعرفها إلا الشماليون الذين لفحتهم ريح الشمال، وبدأت تنهش مجساتهم التي غلفت كبرياءهم مذ بدأت شواهد القبور تزحف نحونا من كل الجهات. فطوقتنا بأضغاث أحلام، وملابس سودٍ كساها الزمن بصفرة حائلة.

***

خوف أمهاتنا كان يكبر ويشيخ قبل أن تنذر البلدة بالقحط والدوار في كل صباح. كن يرقبن مدخل البلدة وهي تستقبل رجالاً معبئين بالصناديق. كانت عيونهن الزرق ترقب بخوف مدمن قوافل الموتى وهي تدخل من طرق البلدة المتعرجة قاصدة (مقبرة الشام)، ويلبسن بأفواههن صمت البلدة. ويبكين في كل يوم من أجل ذاك الذي عاد إلى البلدة محمولاً على الأكتاف، وعندما دفنوه اكتشفوا أن هناك شظايا كانت مخبأة في جسده، أو من أجل ذاك الذي ذهب بقدميه المتفطرتين،

قبل أن تنعما بارتداء الحذاء.. لأنه لم يكن ينوي أن يسحق الحشائش، وها هو يعود حافياً كما ذهب...

***

تلك الرؤى الضبابية كانت تخاتل نفوسنا المجهدة من جراء تلك الأنفة التي يقبل بها أولئك الموتى والشهداء على النوم في تلك الشقوق الأرضية، التي كانت تعد في كل يوم بأمر من مختار القرية تحسباً لأي ضيف جديد يدخل المقبرة فيجد سرعة في مواراته. رجال البلدة كانوا يحفرون الشقوق بنهم وهم يبصقون صقيع حليب أمهاتهم داخلها.

كنا صغاراً، وكانت قوافل الشهداء تكحل تلك الأرض التي امتدت دون كلل، كنا نركض خلف العربات الأشورية طمعاً في قطعة نقدية مخبأة في صناديق العجائز. منذ الصباح الباكر كنا نخرج متسللين من منازلنا، ونركض نحو المقبرة، فندوخ في أزقتها الخربة. لم يكن هناك سوى شواهد، وكانت هناك هالة قدسية تحيط بها، فما سر ذاك الصمت الرهيب الذي يغلفها؟ حتى خيل إلينا أننا نستطيع أن نسمع صوت دوران الأرض حول نفسها. فينكسر ذاك الصمت على أصوات الدموع وهي ترتطم بالملابس السود، المترامية خلف العربة وهي تجرّ سيقانها ببطء وقدسية.

***

تبللت الطفولة في نفوسنا. وانصهرت تلك الرغبة الجامحة في الموت، والشواهد ما زالت تنمو بالرغم من ضيق مساحة الأرض.

وتحذيرات بلدية الشام، كنا نتساءل عن سبب بكاء أمهاتنا. ولم نكن نعرف معنى أن تفقد المرأة رجلاً يكون ظلاً يسايرها. ويلقي بعباءة الرجولة على جسدها الناعم، نشعر بخواء يغلف كبرياءنا.. وهو ينقلنا بين أموات الزمان. وضربات الأزقة التي تفتح جديداً في المقبرة، لم نكن نجيد سوى إحصاء الأيام المعبأة بالضجر. فكبرنا واتفقنا أن هذه الأزقة لم تكن إلا صدى لزمان آخر ينبعث من ذاك الشق الذي أصبح في نفوسنا.

تمر السنون وهي حافلة بذكريات أولئك الرجال الشجعان الذين يقطنون خلف المتاريس المحصنة، وهم يحلمون بأيدي الأطفال الناعمة تربّت على أكتافهم، وتزيل عنها غبار الحرب، في كل يوم كانوا يعودون ويطلقون نحو مخيلاتنا بكاءهم المر وأحلامهم التي غلفتها الشهادة، فعادوا إلى البلدة وهم يبتلعون عجزهم. لأن الرجال في بلدتنا لا يعرفون البكاء. في ذلك الفراغ صور جديدة تمتد في نفوسنا، وترسم على البصر صوراً مسورة بالخوذ والأسلاك الشائكة. ودبابات يتصاعد منها الدخان، فيشع الخوف من ظل الجهات، فنركض خلف عربة الشهداء. ونبكي... كانت أمنياتهم تطفو فوق شواهدهم الرخامية، فترسم كلماتهم التي أطلقوها في العراء.. ولدنا في غرف لها خمسة جدران. ولم يشاهدنا ساعة الولادة إلا القابلة وجَدّتي. ولكن ها نحن نموت في العراء. ويشاهد احتضارنا حشود بشرية تترك أمنياتها تلتصق بالجدران الطينية والنوافذ. وترحل لتترك في المساء الصراخ يرحل مع شفق المغيب.

***

عندما وصلت رســالة أهل البلدة إليه تخبره بموت أبيه، وأن عليه الحضــور بســرعة؛ لأنه أتقن فنون اتســاع المقابــر، ودرس الموت بكل فنونه، وتعلّم كيف باســتطاعة حشرة صغيرة أن تفتك بهذا البغل الكبيــر... حزم الحقائب وأســرع ليحضر إلى البلــدة المقطوعة عن المعالم، وأخذ يفكر في العربة، من ســيقود العربة بعد أبيه. وهو يعلم أن آخــر عربة آشــورية لنقل الأموات هي عند أبيــه، فالجميع باعوا عربــات الكراء في ســنين القحط، وتخلصوا مــن أحلامهم المزعجة إلــى الأبد، لقد عاد ليعيد الحيــاة المؤلمة وتحرج أهل البلدة من عربة الموتى، فيجعلهم يشيحون بأبصارهم المنكسرة عنها، وهو يمر بتلك العربة التي نقلت أغلب الذين يرقدون في المقبرة.

اعتاد أهل البلدة تلك النظرات الوجلة، بينما كان كبار السن يبكون في ســرّهم، وكل واحد يتوقع مجيء دوره، كل شــيء في البيت على عهده الســابق، ولم يتغير شــيء قط سوى المقبرة، في الصباح انطلق نحوها، وعندما شــاهد اتساعها المريب، شــعر بالارتياح، فقد سقاها الناس بأديم الأجســاد الطازجة، وشــواهد القبور أخذت تسحر عينيه، لكن الشيء المحزن، هو توقف عربة أبيه عن نقل الموتى طيلة ثلاثة أشهر، مما اضطر الناس إلى حمل الموتى على الأكتاف وهم يسيرون بهم في طرق البلدة المتعرجة.

فــي الصباح دخل إلى فناء المنــزل الخلفي لينعش عينيه برؤيتها، ذاك الإرث الــذي تركــه المــوت، دخل بكل ذاك الخــوف والضياع،

الذي كان يحمله في نفسه فأخذ يتمتم في سره!.. أنا قادم أيها التنابل الشماليون، يا أصحاب العيون الزرق، منذ أن خلقتم من أديم الأرض. كانت عيونكم فتنة البلاد الأخرى، فتحسدكم عليها البغايا..! اقترب منها متفحصاً أجزاءها. كان شكل التوابيت منحوتاً على ظهرها، وكانت تبعث نفس الرائحة العتيقة رائحة الشهادة عندما تمتزج بموسيقى الربابة وهي تسافر في فناء الروح.

***

ثمة شيء يغلف هذا الكائن الخشبي. وثمة مكان فارغ يبتسم لحصان قد فرّ من كثرة نقل الشهداء على مسيرة عشرين عاماً مصحوباً بطقوس الدفن والعويل التي كسرت أفق عينيه وهما تحدقان في هذا الكائن العاجز. تذكر كيف كان صغيراً وهو يجلس فوق المنصة المشرفة على الحصان وهو يجر العربة بقدسية، مرت به كل تلك السنين الحافلة بالذكريات والشهداء والأموات وسنين القحط... أدرك أن مجد أبيه ورغبته الحارقة في إعادة العربة إلى العمل، تحتاج إلى عملية يدبرها بليل؛ لأن قوافل الموتى كانت تتسع، والمقبرة تبتلع تلك الجثث دون عناء، مع بزوغ الشمس جمع أهل البلدة وأقنعهم بضرورة كتابة رسالة إلى بلدية الشام، يطالبون فيها بتوسيع المقبرة، فوافق الأحياء والأموات على ذلك، فجلس يكتب بالنيابة عنهم، في ذلك اليوم جمع أهل البلدة وقرأ عليهم الرسالة بشكلها النهائي.

أوامر القسم الثاني..

مخطوطة رقم 257 أرض السواد 2022/3/5

السلام عليكم..

لقد ألزمنا نحن الذين نحمل شهادات عليا في فنون اتساع المقابر، أن نصوغ مطالب أهل بلدتنا، وعليه حررنا لمن يهمه الأمر هذه الرسالة، آملين الإسراع بتنفيذ ما جاء فيها وهي كالآتي: نلفت انتباهكم إلى أن مقبرة الشام الواقعة شرقي البلدة قد كبرت وازداد همّها، وإنها بعد أيام معدودة لن تحتوي على جثة أخرى؛ لأن الأرض قد ضاقت ذرعاً بالأموات. ولقد أخبرنا كبار السن في بلدتنا أنهم يرون في أحلامهم يومياً أن المقبرة تنفض الأموات، وكأنها توحي أنه إذا لم تتوسع المقبرة فإنها لن تحتوي على جثة أخرى، وأن عليهم أن يقوموا بعملية توسيع لها، علماً أن هذه المقبرة تضم رفات أشخاص مهمين غيروا مجرى الأزمنة والعصور، وشخصيات كثيرة لا يليق بها أن تطفو عظامها فوق الأرض. ونحن نثق بأحلام شيوخنا، فنرجو تخصيص المنطقة الشمالية وضمها ضمن حدود مقبرة الشام، وإذا كان هذا الأمر صعب التنفيذ فإننا نقترح التنازل عن بلدتنا، ونوقع عن الرحيل عنها من أجل راحة الأموات.

التوقيع

....

في الصباح الباكر.. من الجهة الأخرى للنص... كان هناك ما يقرب من مئتي شخص بضمنهم نساء وأطفال يلوكون خبزاً بأفواههم، يقفون خارج البلدة وهم ينظرون بعيون فرحة، إلى جرافات وحادلات كانت تعمل بجدّ على جرف البلدة، وبالقرب منهم وضعت لافتة حديدية كبيرة كتب عليها (مشروع توسيع المقبرة)، جلس الجميع يستمعون إلى صوت الربابة التي أخذ مختار القرية يعزف عليها، فيجعلها تنشج بحزن أصيل، بينما كان هناك دخان يتصاعد من بقايا عربة تحترق، وثمة رجل يرقص مع ألسنة النار المتصاعدة من ذاك الكائن الخشبي.

صريفُ رؤيا

أبصرني وأنا أسمع صوت صريف الأقلام وهو ينزل أمامي، وأنا أحدّق فيه، أبصرني أخوض روحي في جسد الصوت المتسارع والمنبعث من أتون الصريف، أبصرني وأخذ بيدي وأنا أحاول أن أجد صحراء البياض التي تاه فيها الساردون بصحبة مسروداتهم الغريبة.. وتوقف فيها صريفهم بين طقس له طعم الظلمة وعري والضوء..

أطلّ عليّ وأنا أرسم وجع الصريف وهو ينسلخ من الرؤيا رويداً رويداً.. يجدني أعرّي الحكاية وأغمس صوت صريف أقلامها في بحر البياض... أبصرنا نحن الاثنين معاً ننزل إلى الصحراء بصحبة صريف عتيق نغمس الكلمات والصور في رمال البياض. كانت مجرد رؤيا في جوف روح خربة آثرت أن تنزل معنا لنجد كائن

السـرد يشمّر عن ساعديه ويستل قلماً ومدوّنة جلدية. مدوّنة يقال إنها تعـود إلـى دابة غريبة الشـكل والعينين، ويقال أيضـاً إنها أفلتت من سـكاكين الجزارين، وسـافرت تحت الزمن وهي ترحل بشكل سري كثيف، وقد أبصرت وعاصرت ملوكاً وأمراء وشـذاذاً، حتى وصلت إلى عصر هولاكو، وأبصرت سـقوط بغـداد، ومنذ ذلك الحين صار السـرديون يدوّنون عليها الرؤيا السرية، وما سقط من مسروداتهم... كانـت تهيـم تحت جنح الوجود ولا يبصرها أحـد إلا برغبتها، تظهر بشـكل غريب وبسـرعة تمضي بعد أن تتيح للسـارد أن يقيد ويدوّن عليها مسرودته الشاذة، ثم تطوي صريفها وأرواحها المتناثرة، ثم تفر من بين يديه وتتركه وحيداً وأعزل.

وصلـت المدوّنـة إلى يـدي وهي تهـز وتئن، كنـت وحدي وهو يبصرنـي ويأخذ بيدي، وأنا أبصرها في جوف الرؤيا، وهي تظهر لي قرنيها المتوهجين.. كانت رقعة جلد نادرة فعلاً، حوت كل مسرودات الغرباء والمتوهجين خوفاً، والمفتونون بهيام الحروف كانوا يسردون ويسقطون صرعى في هيام الحروف وصوت صريفها يدوّن أقلامهم..

كان معـي يصحبنـي ويبصرنـي في رؤيـاي، ثم اسـتقرت بين يـدي فشـمرت أنا، وهو يرقبني عـن عينين غائرتيـن، وافتتحت بها رؤيتي، افترشـت.. وتفتحت.. وهسهست.. وأرسـلت أنينها الغريب، وأخذنا نجوسـها ونحن نستشـعر صـوت الصريـف المتعاظم، وهو يـدوّن الكلمـات ويحفرها على جلدها الأصفر. شـممنا رائحة القنديل وزيته في كل العصور التي تعاقبت عليها.. أبصرني وأنا أقلب رؤى

الســـاردين وأطيافهم، وأطوف عليها وهــو يرقبني، فوجدتهم يدوّنون ويقيدون أحلامهم عليها وهم مشغوفون بصوت صريف التدوين، وأنا ألقي عيني وأستسلم للرؤيا مأخوذاً بطعمها وطقسها المتسارع.

وهنا وفي بدايتها وجدت سارداً مجهولاً دوّن عليها التالي: من هنا اخترق موكب الخليفة أحد شــوارع بغداد، وفي جوف الليل.. فأنيرت الشوارع والحارات، ســـار الموكب مصحوباً بفوانيس أنيقة لها زيت جلب للخليفة خصيصاً من الموصل، كان الموكب مســرعاً جداً، وفي نهاية الموكب بدأ حارســان يتهامســـان ســراً عن جارية أرســلت إلى فقيه بغداد ســؤالاً تقول فيه: هل يجوز لي أن أنسج على ضوء موكب الخليفة حين يشــقّ شوارع بغداد ليلاً، لأني لا أمتلك ثمن الزيت لأنير به غرفتي الوحيدة؟.. وعندما وصل الكتاب بين يدي الفقيه ألقى به إلى أحد تلامذته، وقال له بصوت ندي ومسرود بقوة، أما بعد: فقد علمت من أنت، أما لك فلا يجوز لأن صريف الورع خرج من بيتكم.. ثم ختم الرسالة بخاتمه، وقال أرسلوه إليها ولتحتسب...

أبصرنـــي وأنا أنحت عيني في الموكب كيف يشــق عصا التدوين في جوف بغداد، وهنا شــمّ مني عطر الرؤيا التي طغت على المدوّنة الجلدية. أبصرها وحدها، المدوّنة وهي تغلق نفســـها وتطوي مسرودة الخليفــة، وهنــا أبصرت أني أطل عليها من زاويــة واحدة فقط، عليّ أن أغيّــر زاوية النظر، ومــن زاوية أخرى أمرها أن تفتح لي صوت الصريف مرة أخرى. وبعد وقت، ليس بالطويل ولا بالقصير، تفتحت وقــد أصابها وابــل من التعب والاصفــرار والتصحــر، كانت خالية

تماماً إلا من رؤيا مشعوذ هامَ على وجهه بعد أن أبطأت عليه رؤياه، فوصلت إليه المدوّنة وهو في صريفه الأخير وحيداً.. وهنا ألقيت السمع لصريف السارد الغريب والعابر من حولي وهو يبعث لنا هو/ أنا مسرودته التي قال، تبيّن لي من صريفها التالي.. حدث هذا عندما كنت مسافراً وحيداً وأعزل وفارغاً إلا من صوت الغربة يستغيث في جسدي، وأنا أمضي وأترك للزمن وصول المدوّنة.. ثم أظلمت عليّ الدنيا فقررت أن أتوقف للنوم حتى الصباح، وكان صوت الكلمات يقرع المعنى والرؤى وأنا أبصرها تدوّن أمامي، وتبعث صريفاً له قوة وصراخ مهيب يتقاطر من حولي، وهنا في لحظة الوجد تلك ابتدأت ودوّنت صريفي على المدوّنة التي وصلتني.. واستللت قلماً ودوّنت ثم قيدت روحي وأوثقتها على المدوّنة.. فسردت التالي.. كان يبصرني وحيداً إلا من قامة عذراء في أقصى الشمال الإفريقي حدثت الآن، وتحدث أصوات سيوف لها قعقعة عظيمة، وقرع طبول لها أنين، وتوهج يخترق المسافات، يرسل مع الريح إليّ وأنا الوحيد هنا وتحت الرؤيا وجنحها، أبصرته يمتطي وعمره ثلاثة وتسعون عاماً، صهوة أسطول مهيب، يجر خلفه أحلاماً ودعوات تتقاطر منها الحياة، صريف كبير لم يرَ العالم بحجمه، وسار في البحر يتقدمهم وتحيط به دعوات الأخفياء والغرباء، وهو يخترق أمواج السرد والبحر تبع لهما، كان الماء يتقاطر من وجهه دوماً في كل وقت، تسقط المياه من وجهه، وتحدث على الأرض صوت اصطدام مهول، وفي يمينه سيف أغمده طويلاً حتى اشرأبت عنق السيف بعد أن استنشق وجيب

اللحوم وهي ترسل دعوة سرية إليه، سار بموكبه البحري حتى وصل اليابسة، وبعد وصوله عسكر فيها، وهناك وبسرعة أرسل إلى مدونه الغريب، وقال له دوّن هذه الرسالة إلى فقيه بغداد، وقل له هل أستطيع أن أقيّد هؤلاء الحمقى الذين غيروا مجرى السـرد هنا في تلك البلاد، وكسـروا أقلامنا برغبتهم وضعفهم.. والسلام. وعندما وصل الكتاب فقيـه بغداد كتب له على ظهر رسـالته: يحق لـك أن تقتادهم، وإياك، ثم إياك أن تأخذك بهم شـفقة، خذهم كأسـرى ودوّن عنهم مسـرودتك بقـوة قيوم الماء، وإياك أن تكون غافلاً عنه، لقد أبصر الشـيخ بغداد، وأبصـره وأبصرني أجوس الرؤيا، لقد أبصر الشـيخ في جوف الليل يرسـل دعوة معه، وكانت الدعوة مصحوبة بدمعتين فقط، يقال إنهما أمـرّ دمعتين وأغرب دمعتيـن، كان طعمهما مراً مـراً......... مراً.. وهنـا توقفت في الرؤيا، وأنا أرتجف مـن هول الصريف... صريف الأقـلام وهي تدوّن عاماً سـقط مـن ينابيع الرؤيـا. تداخلت أصوات الصريف، وضجت من حولي وأرسـلت المدوّنة دهراً من مسرودات الغرباء، تنفسـت وجودهم الأثيـر برائحته العتيقة.. ثـم.. وثم.. وثم.. تفتحت مرة أخرى، وأزبدت موجاً كبيراً وعنيفاً من أحلام الساردين، وهم يبعثون إلـيّ أصوات الصريف. كانت أصواتاً ليسـت بمغربية، بل أصوات مشـرقية لها وجيب الشـرق، تعالت هسهسـة المسـاريد حولـي، وفي الرؤيا توقفت الأمواج المرتفعة والمقبلة من المدوّنة، ثم صفـت وتوقفت فأبصرت صورتهم وهم مقيـدون من معاصمهم إلى أقلام غريبة لها أشـكال مختلفة، وهم يجلسـون فـي صفوف متقابلة،

ويستمعون لنقر الدفوف في ممر طويل يغمسون أقلامهم في جسد الحياة.. ويمسكون بسقف الحياة ويخرجونها من الظلام إلى النور الغريب، ليستحمّ في قعر الصوت....

أبصرني وأنا في جوف الرؤيا أهاجر إلى عطر المغيب وحدي تحيط بي المدوّنة الجلدية، كنت مبصراً لكل ما جرى، كنت أطل برأسي عليها من فوق، وهو يبصرني أجرجر الصحو خلفي وهو متذمر. ثم... وثم... فثم... تعبت فآثرت أن ألبس وجهي في المدوّنة مرة، وأخذت أقرأ في صريفها فأطلّ الصريف من حولي، وهو يشد قامة صوته ويصرخ.. ثم يصرخ.. ثم يهمس لي.. دارت المدوّنة بين يدي الحالمين والمجذوبين والحمقى ثم.. أشباه الكائنات وتوقفت مرة بين يدي سارد ممسوس له ثلاث عيون في وجهه، فتبشع الناس منه ومن حوله.. يقال إن عينه الثالثة كانت في منتصف جبينه، وكانت تقوم بتوسيط الرؤية له بشكل غريب، فكان يرى الحياة بطريقة مختلفة، وكان كلامه غريباً، وأغرب بعد أن تتفق عيونه جميعاً على زاوية النظر من حوله، وتسلط رؤيا تخترق زمنها، وتبصر الرؤيا بطرق مختلفة. كانت العين الثالثة تختفي وتمحى ولا يبقى لها أثر، ثم تعاود الظهور في جبينه بين صريف ورؤيا ورؤيا أخرى، ويقال إنها لم تخرج من جبينه إلا في الأحداث العظيمة، تخرج وتطل على العالم، لتحدق في الصريف فقط، وتختفي من القادم، لأنه يجعلها تشعر بدوار يلف رؤيتها... وبعد أن هجره الناس وأهله، استوحش الدنيا، فخرج يريد الوصول، سار طويلاً وسار ليلاً ونهاراً، سار الرجل حتى وصل

لجزيرة يستحم الظلام فيها، ويغسل آثار الحياة، وفي غسله يتعالى صريف ونقر حياة ونقر دفوف، ولا توجد أي أذن تسمعه في بحيرة لها طعم الموت.. وعندما بلغها وجد في منتصفها بالضبط (حسب عينيه الاثنتين فقط ودوّن رعاية الثالثة المختفية) غرفة خشبية وحيدة لا يحيط بها سور، ولها باب خشبي أيضاً، فيه عين موشومة بطريقة غريبة حتى تراها حقيقية، ويخيل إليك أنها تدور في جفن له سلاسة غريبة.. ولج إلى الغرفة (بصحبة عينه المختفية) وجد فيها قنديلاً صغيراً مضاء، وبقرب القنديل مدوّنة جلدية يتقافز منها شعاع له صوت صريف، يتعاظم منها ومن روحه أيضاً.. وأطلت عينه الثالثة على المدوّنة، وبدأ يدوّن روحه ويقيد ديونه، ويروي رؤيته، ويسرد لي ما حكاه عن فسحة الظلام القادمة، فعينه الثالثة أتاحت له أن يشرح الحرف، ويتلذذ بصوت الصريف، وهو يرسل الحروف على المدوّنة في إيقاع غريب مصحوب بعويل بعيد في يوم بارد.. ستكون حروباً فقط.. وستتناسل منها حروب ستسيل الشوارع بالمجانين والمغفلين، وسيكون يوم واحد فيه ألف شمس لا تغيب كل واحدة إلا بعد أن يسيل الظلام من جنباتها.. وبعدها ستنار الدنيا بصريف آخر يستلّه الساردون العظام من فم الرؤيا..

إنه يبصرني ويبصره، ونحن في هذا السرد نخرج الكلمات من فحيح السواد، وأرضها إلى صحراء البياض.. أبصرنا ونحن نوغل في لجم أرواحنا بين يديه، ستتوقف الحركة وتستباح الأوراق في بياضها، وتنتهي صحراء البياض دون عودة، وسيحل القنديل

ضيفاً سرمدياً في البيوت تصاحبه مساريد ودفوف باردة وعظيمة. وسيعلو وجه الأرض صريف عتيق يعاد ويعود وحده غريباً.. ثم توقفت العين الثالثة وغارت ومحيت من جبينه، فتغير قلمه بقلم آخر.. أغلقت المدوّنة الجلدية دفتيها وكانت آخر صورة فيها بعد مسرودة الممسوس صورة مدينة فيها تلّ مرتفع جداً يشقّها نهر عجوز إلى نصفين خجولين، يعلو وجهها الصراخ، وتحيط بها أفواه، وفي جوف الرؤيا، دخل الصراخ في صوت الصريف، وأوت الطيور إلى صوت الصريف. وأطفئ القنديل بعدها ليترك الرؤيا تنسحب بهدوء. وتغلق عليه باب العين الثالثة..

أبصرني وأنا أزفر رحلتي مع مدوّنة الجلد. كان الوقت يمضي بسرعة خارج المدوّنة وخارج الحياة.. فتناسلت أرواح، وأضيئت وجوه، وطمست أصوات ومسرودات ثم.. وثم.. وجوه.. واستفاقت أحلام وعلت أمواج الصريف، وتعاظم هول السرد فيها، والرؤيا تتركني وحيداً أمام المدوّنة الجلدية أقلب فيها ما قيده الغرباء والعابرون في جوف الحياة للصريف والصوت.. وأبصر أفكار الساقطين سهواً من الحياة.. ومرة أخرى وأخرى.. أحضرت وجهي بعد أن غيّر زاوية سقوطه، وجعلته يسقط فيها. تغير تسلسل المسرودات فيها، وتغيرت معه الأصوات.. الصوت يدخل الجسد ويتشرب بالمعنى. وهنا قرأت فصلاً من نهايتها كان قد سقط منها، ثم أعيد إليها في وقت لاحق.. وهنا حررت المدوّنة، بصرت صريفها وأرسلت صوتاً له وجع، صوت له خوار، صوت له خرير، صوت له لغة النمل،

ولغــة الهداهد الجريحة. وفـــي المقدمة من عصر الرؤيا أخذت بيدي، استشـــعرتك حولي في جوف العماء، أنا والرؤيا وهو يبصرنا ســوياً، لم أكن أبصر ما يجري حولي، وأنا في كل مرة أمشـــط لســاني وأبدأ مــن جديد، ولكل بداية ألف لغة وســيرة واحدة. ثم ســرت في عروق الرؤيــا انتعاشـــة متوهجة والأشــياء مــن حولي صامتــة ولا صوت أبــداً، توقف كل شـــيء، لقد وصلــت طبقة في المدوّنــة تقرأ بالرائحة فقــط.. إنه عصر يقع في آخــر المدوّنة.. قيل.. ويقال من هنا إن هناك خمســة رجال، كانوا ناقري دفّ مهرة في الصوت والتقييد، لهم أقلام غريبـــة، في كل قلم ألف لســان، وفي كل لســان صــوت وصريف.. وصريف وصوت.. وفي كل لغة سيرة وصريف، وهو يتقاطر منهم، والهــول يشـــتد في صوت نقرهــم، وفي كل طقس تنهــض الصحراء مــن حولهم، وتقــوم قيامة البيــاض على الورق من شــدة الصريف، وهو يئن بهم.. كانوا خمســـة ســكنوا قرب صحراء البياض، وهجروا الظــل والظلام، وتوحدوا مع أصوات الدفوف، وهاموا على وجوههم تحدوهم أصوات النقر الحزينة المتسارعة من حولهم بعد كل طقس.. بعــد أن أوغلــوا في الصحــراء.. توغلوا فيها ثم تاهــوا عن بعضهم، وصـــار لــكل واحد أثر خلفه، ثم تلاشـــت في حضــرة الرؤيا آثارهم، ودون عــودة نقروا على دفوفهم، فأبصرتهــم المدوّنة الجلدية، ففرّت من واحد إلى آخر وتركت له في جوفها مسرودة وحيدة في صريفها، يقــول فيها صريفه، ثم يموت وحيداً وبعيــداً وغريباً وحده، ثم تقدمت المدوّنة إلى يد محمود جنداري، أبصرها شهية وعارية، وجلدها مغرٍ

بكتابة فصل لا يشبه الفصول الأربعة، ثم وجد أمواج الصريف تشيع روحه نحوها ليدوّن ويقيد ويفتق كل الألسنة التي في روحه، فأخرج قلمه وحدّق فيه ملياً ثم كسره بقوة، وقال: ليطل هنا عصر الدفوف.. فأخذت الدفوف تدق من حوله، ويطرب لها بوجد الصريف، ثم أخرج لسانه وأخذ يمشّطه بوجل وحزن ولذة مفرطة، مشّط لسانه فتساقطت الحروف على المدوّنة فتنكتب عليها، وصوت الصريف يعلو من حوله ويعلو حوله، بكت الدفوف وهي تنشج بنقرها اليتيم، كان يدرك أنه في رؤيا يستنشقها فقط ولا يبصرها، فحام حول ذاته بسرعة وكتب أمواج الصريف في قعرها، وقال: أمواج الصريف صارت في قعري كالجبال، ومن هول حرها وقيظها ستنار الصحراء وحدها. ثم ابتلع لسانه، وهام على وجهه وحيداً وغريباً، وبقيت الدفوف خلفه في الصحراء تنقر وحدها، ثم طوت مدوّنة الجلد أرواحها المبعثرة بين النقر ورمال البياض، ورحلت، ثم استقرت بين يدي رعد فاضل كان وحيداً وبعيداً في الصحراء، وقد توغل فيها والبياض يحاصره من كل مكان، كان أعزل إلا من الضوء والظلام، أخرج رعد فاضل دفّه ونقر عليه، فتفتحت أذنان وحيدتان، وانتبهت لصوت الصريف والنقر، ضرب على الدف بقوة وكسر قلمه، ثم حام حول نفسه طويلاً ثم استل الظلام ودوّن به على المدوّنة.. وأخذ يسرد بالظلام علينا طقوسه في المحو والصريف يعلو من حولنا، ويعلو فتصاعد من الدفوف صوت الوجيب، والمدوّنة تئنّ بين يديه، تصاعدت رمال البياض من حوله، وأرسلت موجاً يتبعه صريف وصريف لا يدوّن

إلا بالرائحــة؛ ليمحو منه تفاصيل الظلام، ثــم نقر على الدف بأخرى فطــوت المدوّنة روحها، وانتقلت إلى عمار أحمد وهو في الصحراء. استل عمار أحمد دفّه ونقر عليه بوجد وهو يبصر مدوّنة الســرد تئنّ بين يــدي نقراته، ثم فتحت المدوّنة صريفها لــه وغنّت حوله بإيقاع، تموسقت معه الرؤيا وتلوّت وتبعثرت، ثم تفتّقت الصحراء من حوله، وهو يتمروى لنا عن كائنات ســتبصرها الرمال، وبعدها تسارع النقر علــى الدف، وخرجت من جــوف الرمل دابة الخروج مــن المدوّنة، دابة لا شــكل لها، بيد أنها كانت تتلوى للتموسق من دف عمار أحمد، اقترب منها ووســمها في جبينها، بعدها اســتل قلمه، ثم حدّق فيه ملياً وكسره، ثم أخرج وتراً موسيقياً وأخذ يدوّن به على المدوّنة، وصوت الصريف يتعاظم من حولنا، وهو يتموســق ويســتلّ جوانحه، ويرمي بهــا دابة الخروج. والرؤيا تبصرنا ونحن نجوس هذه المهاد الغريبة، وفي جوف الرؤيا أدركت أن الخروج سيتوشــح قوساً ويمضي وحده في صحراء البياض. لم أعرف كيف وصلت المدوّنة وما حلّ بها فيما بعــد، بيد أن النعاس غلبني وغابت رؤياي في عتمة لذيذة، تداعت لها أرواح الســاردين معي، وفي عمق الصريــف أبصرت المدوّنة تنتقل من يد إلى يد، ثم استقرت بين يدي ناقر يدعى بشار عبدالله، لم يسكن هــذه الأرض، ولم يكن في الصحراء التي تتابع عليها ناقرو الدفوف، أبصرته في صحراء ليست أراضيه، كانت صحراء في جوف القمر، صحراء تشــع بالهواء الطــازج، ومن حوله أبصــرت الحياة تجوس أســماء مجهولــة لا نعرفها، وأشــكالاً غير متشــكلة، كائنات هلامية

تجري بسرعة الريح نحو آماد بعيدة بحثاً عن الهواء، وصلت المدوّنة الجلدية إليه بعد رحلة طويلة، واستقرت بين يديه، أحسّ بطقوس الصريف تمتزج وتلامس روحه المتعبة، حدّق طويلاً فيها ثم استل الهواء، وقيّد عليها رحلة انسكاب الضوء في الكائنات، لتهرول بعدها من حوله وتجري في الفضاء، وهو يرقبها مثل طفل يطلق فقاعات الألوان ويراها تختفي بعيداً عنه، قيّد بالهواء عليها مسرودته، وتركها وغاب مع كائناته الوحيدة بعيداً عن أرضه، ثم وصلت المدوّنة في جوف الرؤيا إلى يد جاسم خلف أبصرها تتلوى من بعيد وتتعرى له بأناقة مربكة، حدّق فيها طويلاً، ثم أمسك دفّه وبسرعة انتزع طبقة جلدية من الدفّ كانت تغلفه من الخارج، فظهرت طبقة جلدية رقيقة جداً وصقيلة لها صوت المسرة، وأطياف الصريف المتناثرة حوله.. طفق جاسم خلف يضرب دفّه بطرقات خفيفة، وهو يترك الرؤيا تتحدر، ويبصر تفاصيلها الموشاة بضربات ناقري الدفّ.. ثم أبصر المدوّنة بعد نقراته تقترب منه وتستقر بين يديه، شعر بحرارة الصحراء القادمة تلفح دفّه الوحيد، انتزعه بقوة وترك أمواج الصريف تتعاظم وتتعالى وتتقافز بين يديه ومن حوله، ثم استل طقس المسرة من نقره المتتابع، ودوّن به على المدوّنة الجلدية، وبالمسرة بدأ ولها أخذ السرد ينمو حوله... وبدأ جاسم مرة أخرى فتلوّت المسرودات بين يديه شغفاً، بدأت المساريد الغريبة تتلوّى وترسل أصوات صريف عتيق ممتزج بنواحٍ له أصوات برية حادة.. والمدوّنة بين يدي طقوسه البرية وفي بريّته البعيدة بدأ... و.. تسارع حولنا النقر

والصريف والرؤيا، ويتعاظم اصطفاق الصحراء على الدفّ وصوته المسرور والغريب، ثم أرسل يده الأخرى لتمسك المسودة من دغلها المنقود على رفوف الصحراء، نقر عليه بقوة فنهضت من مساريد الغرباء أحلام وصور ملوك.. طقوس سرية.. لحوم تحترق.. صورة مدينة يشقّها النهر.. مدن تتلوها مدن تختفي، أصوات تتكسر بشكل غريب، وأصوات صريف تتعالى من جوف المدوّنة، استفاقت طقوس سرية لم تعرف إلا الخوف، وأصوات الصرير حين يشع من كراسي الملوك، وأصوات أخرى مبحوحة لها أنين، ثم تسارع النقر على الدفّ وأنا أبصرهما فخرجت من المدوّنة كائنات خرافية وبصور مختلفة، وصار صوت الدفّ أكثر رعباً، وأكثر روحانية من حولي، وأنا أبصر المدوّنة وكل الساردين الغرباء تجوس أرواحهم أصوات الدفوف، والرمال تتساقط حولنا، وفي جوف البياض وفي عمق الصريف وبلذة ملتاعة، تصاعد طقس المسرة من بين يديه وهو يغسل صريف المساريد الغريبة، ويلقي عنها أصوات الدفوف، ثم طوى روحه وساق قطعان السرد في مروج لها شمس أخرى وصريف آخر.

تداخلت زوايا النظر وتداخلت الرؤيا في ذاكرتي، بيد أني عدت مرة أخرى وهو يبصرني أقيد هذه الرؤى وأسمع لوقع صريفها، أبصرنا سوياً نجوب مروجاً بعيدة، وبعيداً في جوف المدوّنة تسارعت الريح من حولي، وتداخلت العصور، وصارت المدوّنة تنز أصوات صريف وأصوات أزمنة سحيقة لها بريق أخاذ، ثم توقفت المدوّنة

في غمرة طقس المسـرة، وفتحت آخر مسـرودة، يقـال بينما موكب الخليفـة يقتـرب من بوابة القصر عاد الحارسـان فـي نهاية الموكب يتهامسـان، قـال الأول للثاني عندما رأى بوابـة القصر تفتح بصوت مرتفع: أقول لك اسـمع عليك أن تسمع.. اسمع.. يقال إن قرع الطبول صار يسـمع على الأبواب، وحتى الشبابيك صارت تهتز له، وبعض النوافذ فيه تطـرب لتلك الأصوات. فقال الثاني للأول: ليكن كما أراد موغـلاً في الرؤيا علّها تكون فاتحة عصر آخر.. إنه يقترب منهم في الرؤيا مثل اقترابهم له. لا تهتم إنها الخديعة فقط تنسج صوت صريف آخر. وفي تلك اللحظة انقطع الحوار وتلاشى الحارسان خلف البوابة، بعـد الدخول أوصدت أبواب كبيرة. خلف الموكب وفي عصر الرؤيا أبصـرت باب القصر يغلق بقوة ويسـمع منه صوت صريف ممزوج بعطر حريق، ورائحة الوجيب تتصاعد من جوف القصر.

مساءُ الحرب

إنهــا تلك الأفواه والألســن التــي لا تخرج من ســقف ظلامها إلّا ذكريات الحــروب، حروب ختمت كل تجــارب الرجولة دون عناء، وامتصت مثل فم بغيّ لعوب ما تبقّى في أثداء الوطن من فورة حليب لم تعد طازجة بما يكفي.

رغــم أني لم أتذوق طعم الحروب في البراري المقفرة، ولم تدرك أصابعــي طعم الموت الــذي ينطلق من ماســورات متعددة تطلق كل شــيء إلا المــوت، إلا أني كنت أول الواصلين إليها، لســت أدري ما الذي يقود هذه الحشــود نحو الأفول فــي غياهب الارتجاف، هل هي الحقيقــة عندما تتعرى أمامي وترتعش أمامــك، أم الرغبة التي تحكم قبضتها حول الأعناق؟ صحيح لم أذق طعم الحروب؛ لكني أســتطيع

أن أحصي عدد القتلى دون عناء، وكل الأحاديث التي دارت هناك في ساعات الليل والهزيع الأخير منها، وهو يمتص ما تبقى من ضرع الزمن، من أول رصاصة أطلقت وحتى آخر تابوت عاد إلى الوطن وهو يحمل أمنية وحيدة، وذلك الأسير الذي ما زال في ليل الزنازين وهو يرسل في جوف الألم رغبة وحلماً في الموت على أرض لم تعد تشبه أي أرض. من تلك الأفواه انطلقت إليها، إنها الحرب العجوز تمدّ لي يديها بحكمة، انطلقت نحوها وكنت أول الواصلين، ولم أعد حتى الآن، مروراً بكل حرب كنت الوحيد الذي ينمو بين ذلك الجسد الكبير، والذي يمتد نحونا بكل تفاصيله، بين حرب وجثة، حيث ترقص الأعناق بفرح غامر، وتتجه نحو النور من جديد في تلك الأيام المرتعشة ذهبت، وفي تلك الأيام استيقظ الوحش الذي لم يعد يرتوي من مراوي الوجع، كيف هي الحرب وكيف هو مساؤها وصباحها، لقد تجولت في أتونها دون أن يبصرني الجنود، والكل يعود في نهاية المساء لأن الحرب لا يوجد فيها إلا مساء واحد، هو عندما تعود في جوف صندوق، وتحمل في داخلك أمنية واحدة هي أن تقول للجميع لقد تعبت.. أغلقوا قبري بهدوء ليحل مسائي السرمدي.

قبل أن تبدأ الحرب دهورها توقدت الأيام الباردة وازدهر الوجع والبرد فيها دون رفق، كانت أول حرب تدافعت الحشود، وكنت أول الواصلين من خلال الأفواه التي أسهمت في مجالس السمر وهي تتمروى عنها، مذ كنت صغيراً دارت هذه العجوز بكل حواسها وأيامها أمامي وقالت: إن الشيطان يغادر مكان الحرب ولا يبقي

فيهـا منه إلا الشـهقات التي تولد منذ ألف يـوم وموت، كانت في هذه اللحظات تولد أمامي وهي عارية إلا من عناقيدها المغرية.

اليوم الأول:

الجوّ تفوح منه رائحتان الأولى: رائحة الأصوات، والثانية: فحيح الأجسـاد المتعّرقـة تحت البزّات العسـكرية وهي ترسـل تصحرها فـي عيني نحو آماد بعيدة، ورائحة أخرى هي رائحة الغائط المشـبع بالخوف والترقب.

فـي الصوت ولـد الرصـاص والقذائـف، وكان صوتنا ينسـاب فـي البيت بعيـداً عن العجوز، فقلت لصديقي الذي يشـاركني الشـق الأرضي: إن صوتك مختلف عما عهدته.

– فقال: كلا إنه صوتك الذي تغير.

اليـوم الأول كان فيه اكتشـاف الحكمة التي تنادى بها الفلاسـفة، وجـاءت لتولـد أمامي في الشـق الأرضي.. الصوت فـي الحرب له رائحتـه، فتعلمنـا كيف نتحسّـس الحروف، ونشـمّ رائحـة الحروب والكلمات حين تنبعث من سقف الظلام وهو يطل علينا من الأصوات المنبعثة من وفي الحرب.

صباح الحرب:

من أجل أن أطرد الأصوات والكلمات من شقي الأرضي، عليَّ أن

أنســى ذلك الشقّ الذي لا يزال صاحبي يتنفس فيه مساءات الحروب، فـــي اليوم الأخير من الحرب يحــدث أحياناً أن تحزم حقائبك، وعندما تجمع أمتعتك من شــقك الأرضي تكتشــف أنك كنت ومنذ اليوم الأول يرقد معك في جدار الشــق الأرضي جسد حل مساؤه، ولكنه لم يصل حتى الآن، فتسقط أغراض الحرب لتحاوره عن يومه الأخير في بيت العجوز..

ــ فيقول: لماذا تأخر هذا المساء كثيراً؟

ــ أي مساء تقصد؟

ــ مســاء الأشياء حين يشقّ جوفها الصباح الأخير لتعاود الأرض طقــوس غيابها فينا، تبحث عن أغراضك فتجد أنك جئت إليها عارياً، وتعود منها وأنت محمل بأشــياء من الحرب يمكن تسميتها بتذكارات الحروب العبثية.

ــ إنه اليوم الأخير.

ــ قل لي كيف هو شكل المدن التي تنحت صافرات الإنذار هويتها؟

ــ لا فرق بين اليوم الأول واليوم الأخير، فاليوم الأول هو صباح الحرب والثاني مساؤها.

تحــوم حولك ذكريات عن الشــقوق الأرضية بترابها وشــظاياها الســريعة حين تحلق فوق جســدك الواهن.. لتصل بيتك وأنت لا تزال هناك... الروائح وحوار الأجســاد المعطوبــة بذكرياتها.. إنها الحرب

تسحب جسدك نحو شق أرضي لم تحفره يداك... وبعد أن يغادرك الجميع تدرك أنك تمارس غيبة صوفية لترمم ذكرى حوار قديم مع أحد الجنود الذين صادفتهم في شقوق أرضية عديدة، تعاود تذكر الكلمات، لكن قيامة الحرب...... قامت.

الحرب الأخيرة:

كنت آخر الواصلين إليها، رأيت الرجولة تنحت رحيلها بجمال آسر، وأبصرت المرواتي وهو يقول نفسه؛ فتزهر الخنادق تحت لسانه، وتطوى مسارات الحرب، كان يتجول فيها فتنمو تحت أقدامه حكايا الحرب لتقول نفسها دون عناء، وتشقّ الفئران المقبلة نحونا طريقها، وتعيد العجوز آخر ما تبقّى في ضرع الحرب، ويولد المساء مرة أخرى. ولأول مرة كنت أصوغهم حروفاً تخرج من فم الحضارة القبيح، ويسقطون على الورق أمامي وهم عراة، أسوقهم نحو أماكن بعيدة لتفرّ منهم قطرات الماء، ويتسرّب الوطن بعدها بروح مغامر عنيد، ويرحل إلى الجوف ليمارس غيبة صوفية يرمّم بقاياه، فمشّط لسانك لتسقط الحروف فوقنا، وتبصر هذه الخنازير أنك المريد والمراد، نفض المرواتي لسانه منهم وقال: كيف ستفصل بين حرب وحرب؟ وكيف ستروي وجع الرجال أمام هذا الكرب ودهشة الأرض بهم؟ هناك حيث تورق أجسادهم من كل هذا التناثر.. إنهم هنا فمشّط لسانك لترسل الحروف لذتها نحوهم، ويسمعها شيوخ الكلام، لقد بلغونا وصرنا خلفهم، إنهم في المساء والصباح يطلون

علينا بوجوههم البيض والسود القبيحة ومجنزراتهم التي لم تعد تخجل رجولتنا في القدرة على ابتلاعهم ونحن هناك ولدت اللحظة التي استبيحت فيها الأشياء، وجرحت أفق الظلام؛ لتئن المدن وترسل أمنياتها مع دياجير الأصوات، وفي قلب الحرب، غادر الجميع نحو تلك اللذة التي تجعلهم يخلعون الحروف ويمضون نحوها. إنها لذة لها طعم الحياة وهي ترسل عنفوانها بعين مرواتي يصوغ حروفه، لتشتعل المخيلة بها، غادرني الجميع الرجال.. الرجال وأوجاعهم وموتهم الذي نحتوه بجمال آسر. وبقيت أنا وجهاً لوجه مع ثلة من الأوغاد يجوبون فوقنا بكل قذاراتهم وقلة عمقهم، تساقطت الحروف بعد الحرب حرفاً إثر حرف سقط الميم.. الميم سقط حين وجهت دبابة ماسورتها نحوي، اشتعل الوقت بعده، تبعه الجيم ليكشف قبح الجندي وهو يقتادني ليلاً نحو المعتقل لأجد حرف العين وهو يمتطي صهوة الكاف، يناضل من أجل أن يكتشف عورتي ويقتادني بعدها إلى لوحة داخل فناء الموت كتب عليها. تشييد المدن بالخراب والأنين المتسارع أنها الحضارة بكل قذارتها ودبقها، إنها العجوز تشيد نفسها بمسخ الحروف والتحديق في عورات الرجال، وهناك شاهدتها وهي تلعق دبق الحروف، وبرعب قادم من جوفها تدرك أنه سيقتادها يوماً لفناء الفراغ ليطل النقاء مرة أخرى، ويقتاد المرواتي الحروف دون عناء نحو مواجهة أنيقة.

خريفُ الدمى

وحــده الذي يدرك أن المدينة تكبر مثل القمامة دون مســاعدة من أحــد. وأن الفراغ وحده الذي يســتطيع أن يبتلع عجزه المجنون، دون أن يرتبك ودون أن يوقظ مساءه الأخير.

كلما دخل غرفته المعتمة يســقط بصره المتعب عليها، فيجد جيشاً من الغبار يســتقر فوقها، بينما صوته الشــبق يستفز عيني تلك الدمية التــي كانت لا تزال تحدّق في خوفه المتزايد. عندما يغلق باب الغرفة يشعر أنها توزع رائحتها بالتساوي في أرجاء الفراغ السابح في ضوء الغرفــة الذي يزخر ببريق مظلم. يعكس الضــوء المنبعث من عينيها الحادتين، فيرنو إلى الموت والطمأنينة وطول المسيرة التي تمدّ عنقها نحو الأفول بقسوة، عندما ينظر إليها يحس أنه يهبط بسلّم طويل، ويقف

أمام باب خشبي عتيق رسم عليه ذراعين موشومتين بصقيع فارس... تتوضح الرؤية أكثر فيراها جالســـة وقد تورّد خدّاها وهي تهمس له: تقدمْ ولا تخفْ... يلمس يديها الإســفنجيتين المكسوتين بصوف ناعم، فيشعر أنها ليست دمية، بل شخصاً يعرفه، وعندما يحاول التذكّر يلفّه الــدوار فيقفل راجعاً، ويغلق جميع الأبواب، ويســتلقي على بطنه، ثم ينام، فترقد الظلال من حوله تســتيقظ الدمية، وتلوذ بالضوء الساكن، لتحدّق في ظهره العاري، وتبتسم بفرح مضيء يغمر الظلام، ويحرر الغرفة من رقادها المتكلّس.

***

تتداخل الألوان فينحســر الظلام، وتبدأ عيناها بدوران ســريع في أرجاء الغرفة، فترقص الغرفة ببريق الحياة. منذ أكثر من سبعة أعوام لم تتحرك من هذا الرفّ الخشبي. فأحسّت بأن الحياة تدبّ فيها من جديد فتحرّك يديها وســاقيها بنشــوة، وتحرك رأسها يميناً وشمالاً، وتنفض الغبار عن جســدها الصوفي. تشــعر للوهلة الأولى أن أي حركة تقوم بها هي باهظة الثمن. قفزت بحركة بهلوانية نحو الســرير، واستقرت عند ســاقيه العاريتين فوق المســند، وبدأت بالتصفيــق والغناء، غنّت بصوت تغمره الدموع (ســأحضر هذه الليلــة طفولتي التي لم أرها... وأشتري أوراقاً بيضاً وأقلاماً ملونة... سأحضر ظلي... وأحكي عنك آلاف الأشــياء. عــن بالوناتك التي لا تطير... وسأرســم وجهي بلون الطفولــة المبللة.. وأنثــر أوراقي تحت المطــر... وأحكي عنك آلاف الأشياء... وعن الليل الذي تتوحد فيه الجهات دون حياء)، توقّفت عن

الغناء والتصفيق، وأحسّت أن جسدها الناعم بدأ يضيق بملابسها التي لم تتغير منذ زمن بعيد. وأدركت أنه وحيد إلا من ظلّه المبتل.

قفزت باتجاه الرفّ الخشبي وجلست في مكانها القديم، وأخذت تهز رأسها بحركة نصف دائرية، فتنسحب أشرطة الألوان باتجاه عينيها، وتتداخل الأضواء بحركة لولبية عصية عن الوصف، وتستقر في عينيها الحادتين. فينهمر ظلام كثيف يغمر المكان بسرعة الحرمان عندما يقبل، عندما استيقظ في الصباح وجد نفسه متعباً، نهض من السرير، سار نحوها بخطى وئيدة ومثقلة بالهموم، كان يشعر أنه قد كبر وحده دون مساعدة من أحد، ومدّ يده ليتحسّس ظهره المتحدّب فأطرق برأسه نحو الأرض، ونظر إلى ساقيه المرتجفتين، فأيقن أن كل شيء مصيره الشيخوخة. حتى الزمن يتجه نحو الغروب وهو مطمئن، واصل خطاه نحو الرفّ الذي تجلس فيه الدمية، وقف قبالتها وأخذ يفكر فيما جرى ليلة البارحة، فتذكّر أنه كان منهكاً، والذي شاهده لم يكن إلا كابوساً مزعجاً؛ لأن الدمى لا تنمو مثل الظلام ولا تشيخ مثل التواريخ.

***

أخذ قلقه يزداد وخوفه يتسع، فلم يعد يستطيع أن ينام إلا بعد أرق مقيت يشد أعصابه الذابلة نحوها، عيونه التائهة لم تستطع تحديد حجم الفراغ الذي يربك أحلامه وسريره لم يحفر رقاده المحموم بنشوة المنتصر. فمجرد النظر إلى تلك العينين المشعّتين هو احتضار

يومـــي. في الليل ينهض ويتقرّب منها علّه يجد فيها شـــيئاً غريباً، في إحدى الليالي استيقظ من النوم فوجد الغرفة معبأة بألوان شتى ترقص، وصوت غناء تردد صداه الجدران، نهض من الســـرير وسار نحوها، أمسكها بيديه وتحسّسها فوجد جسدها يشعّ وينبع بدفـء غريب. قرّبها من أذنه فهمســـت له شـــيئاً عـــن عجائز أطفأن النـــور وآثرن الجلوس فـــي ظلام دافئ. ثم ســـكتت، فرفعها باتجاه عينيـــه وهزّها بقوة، لكنها لم تتحرك، فألقاها على الأرض بحركة عصبية وســـار نحو صندوق حديدي في زاوية الغرفة، حمل الصندوق ووضعه قرب السرير، فتحه وتناول الدمية، ووضعها داخل الصندوق وأغلقه، فغرق الصندوق في برد العتمة.

بعد ذلك اســـتلقى على فراشه، وبقي مســـتيقظاً حتى الصباح يفكّر فيها، منذ متى وهي معه؟ ومن أين جاءت؟ أسئلة حاول أن يجد أجوبة لهـــا، لكنه لم يعرف ماذا يفعل، فذلك الـــدفء الذي ينبعث منها يذكره بفارس ركب حصانه وتاه على ســـرير النوم، وقبل أن يضع أصابعه فـــي كوة الحلـــم تناثرت أرجاء البيـــت من حولـــه، واحترقت بصمت مخجل دون أن يشعر بذلك أحد.

أغلـــق الباب خلفه وأضاء المصباح، اقترب من الصندوق وفتحه، ثـــم أخرجها، كانـــت مغمضة العينيـــن فحملها ووضعهـــا على الرف الخشـــبي، وأخذ يتأملها، لاحظ أن جسدها قد كبر، وأن بطنها قد انتفخ قليـــلاً ـ فجأة ـ فتحت عينيها وراحـــت تحركهما ببطء حولها، مدّ يده نحو رأســـه، وشـــد شـــعره بقوة ليتأكد أنه لا يحلم فشعر بذلك. فراحت

تبتسم ببطء، ثم نهضت متكئة على يدها اليمنى، واقتربت من نهاية الرفّ، فشعر بأن جسده بدأ يرتعش، وأن العالم كله برؤوس متعددة من الفراغ ويحدق فيه، تراجع إلى الوراء وهو ينظر إليها، فأخذت أشرطة الألوان تظهر من جديد وترقص في فراغ الغرفة بفرح، وتتداخل الأضواء بحركة محمومة وهي ترنو إليه، فحاول أن يجمع شتات عزلته الطرية دون أن يوقظ مساءه الأخير.

***

عندما استيقظ في الصباح، انتبه إلى جسدها الذي كبر، وملابسها التي بدت ضيقة عليها، وبطنها الذي انتفخ بشكل كبير. كانت تكبر دون أن تحدث صوتاً، وتوزع نموها عبر الضوء، وعبر الرقص المحموم بين أشرطة الألوان، وتمد إليه جسور الخوف برهبة عابد، وتتركه يضيع أمامَ عينيها، فيشعر بنموها يمتد نحوه بسرعة، ويضيع له وجهاً آخر بدل الوجه الضائع، دون أن يلاحظ أحد ذوبان صراخه. جلس على السرير وأحس أنه يسيل تعباً، وينفصل عن نفسه ولا يدرك كنه ما يحصل أمامه.

انتصف النهار وهو يفكر بحلّ لهذه الدمية التعيسة. فقرر أن يأخذها إلى خارج المنزل ويدسها في التراب، وضعها في كيس أسود، وغادر المنزل متوجهاً إلى خارج المدينة، اقترب من العراء وتطلع حوله، وبينما هو يراقب المكان، أخذت الدمية تتحرك داخل الكيس وتصدر صوتاً يشبه صوت النمل عندما ينوس، فشعر بخوف

أكبـر وازداد ارتباكـه والكيس يتحرك بيده بقوة أكبر، واصل سـيره بسرعة وأقدامه ترتطم ببعضها، وهو يتطلع حوله بغرابة.

توقـف عن السـير وأخذ يحفر فـي الأرض، بعـد أن ألقى الكيس علـى الأرض، ازدادت الحركة داخله بعد أن ارتطم بالأرض، فجلس ينحت في الأرض بإصرار، بينما صوتها يشع من داخل الكيس بطيئاً ومتحشرجاً، وعندما انتهى من الحفر أخرجها من الكيس وتطلع إليها وهي تتلوى بين يديه. وضعها داخل الحفرة وسـحب يديه، فاستسلمت بدورها له، وبدت هادئة ومسـتكينة وقد نثرت شـعرها الأبيض على صدرهـا المتجعد له فيما يفعله، وآثـرت أن تغني له (وحدها الكلمات تتكسّـر في الحلـق... والليالي تلحق ببعضها دون جـدوى.. وأنت ما زلت تنأى عني)، ثم توقفت عن الكلام وأغمضت عينيها باستسلام.

أمسـك بحفنة من التراب بيـده وانحنى بجذعه نحوهـا، وقال لها بصوت هادئ: (الدمية التي تدس الأسئلة في الجيوب ستعود وحيدة.. ولن تتكسّـر الكلمـات في حلقها بعد اليوم.. فقـد أصبحت وحيدة.. إذا كنت تسـمعين ذلك)، ثم طفق يُهيلُ عليها التراب حتى سوّى الأرض، وغـادر المكان وهو يتلفّت حوله، غادر مسـرعاً إلـى البيت، ارتقى درجـات السـلم بخفّـة وأدار المفتاح فـي الباب واندس بسـلام داخل الغرفة، اسـتعاد أنفاسـه المتقطعة وأضاء المصبـاح، فوجدها أمامهُ تجلس على كرسيه الهزاز.

كانـت تبدو متعبةً وهي تـهزّ نفسـها بوقار مؤلـم وقد كبرت أكثر،

وتمزّقت ملابسها عن جسدها، فبدت نصف عارية من الأعلى، جلس قبالتها باستسلام، وأخذ ينظر إليها فمدّت يدها تحتها وأخرجت مشطاً خشبياً بعد أن أفردت شعرها الأبيض، وراحت تمشّطه ببطء وهي تهزّ نفسها، والكرسي يرسل صريره العتيق، فشعر أنه أمام جدته وهي تمشّط شعرها تحت أشعة الشمس، وتحكي له عن ذاك الفارس الذي ركب حصانه، وتاه على سرير النوم، وعن المدينة التي تكبر مثل القمامة دون مساعدة من أحد، فودّ لو تحتضنه بذراعيها، وتمنّى لو تحتضنه بذراعيها، وتمنّى لو يبكي ويضع وجهه على صدرها المتجعّد، نهضت من الكرسي وتقدّمت نحوه، نهض وسار إليها ففتحت له ذراعيها، ألقى بنفسه بين ذراعيها، وأخذ يبكي بحرقة، فربّتت على ظهره، بينما كانت الألوان تتداخل بحركة محمومة داخل الغرفة وشعرها الأبيض يتطاير بحركة بطيئة، فقالت له: يا بني لا تخفْ فوحدها المراحيض القادرة على احتواء أحلامك، ودميتك صارت حصاناً آخر يدوس الأرض بحوافره، فتشتعل المسافات تحته، فهو دائماً يسافر في الليل ويترك خلفه ذكرى قديمة هي ما تبقى منك، فانتحب بصوت مرتفع وقال: آه يا جدتي.

خارجُ الغرفة

قال الراوي: هكذا قالها جدي كلمة ثقيلة تملأ الفم، ففاحت منها رائحة الشاي والتبغ، وتبادرت إلى أذهاننا صورة رجل حافي القدمين يسير في طريق وعرة، وينام في كل مكان، ويحمل على ظهره صرة الحكاية وأنصافها، يسير وهو يسيل بكلماته السحرية فوق المكان، فتنبت الأرض من بعده دهشتها الأولى..

يوزع أنفاسه على الجالسين ويروي لهم عن بيوت سكنها الفزع، وعن شحاذين وأشباه قردة، وعن نساء جلسن في برد العتمة.

الراوي: المرواتي هو ذلك الشخص الذي أفلت من زمن الحكواتية والطاعون، ومن زمن القصخون. لم تدركه الأزمنة، فقد كان فوقها، ولم تستطع كل الألسن التي تطحن رحى الكلام، أن تلوكه، لم يبصره

أحد، وقد اختار هذه الليلة ليطل فيها عليّ وحدي، أنا الذي اختارني لأحكي عن فراديسه آلاف الأشياء، وعن عالمه الذي ما زال بكراً كالحقول العذراء حين تبثّ دغلها، لقد حكى لي عن أول بيت سكنه الفزع، وآخر جملة أطلقها الحكواتية في المقاهي وتمروى عن أشياء أخرى لها طعم العصور، وهي تجتمع حول شفتين وحيدتين، وقد جذبتا نحوهما آلاف الآذان عبر الحقول والسجون والكراسي ذات الصرير، وعن مساند الملوك التي لها هيبة السلطان حتى عندما تكون فارغة.

شفتان وحيدتان ولسان واحد طافت حول العالم عبر مراحله، ذاك الراوي لم يبصره أحد عبر الزمن، فقد كان مختفياً في الفراديس التي لم يدركها الرواة والمؤرخون والشغيلة في الخانات، ولم تكتشفه أحلام الألسن.

ياه.. ألسن تصدر أصواتاً وحروفاً لها أعداد وكواكب، وأخرى لها صور، ومنها ما هو أصل، ومنها ما هو قبل الأصل، وجدل عظيم يدور حولها، من مجالس الخلفاء وحتى مقاهي الدواسة. من أجل الكلام ذاك الصوت الذي ينطلق من الفم ليجمع حوله الأيدي المتشابكة والمتصارعة، والأقدام التي تحث الخطى قبل البدء، كل هذا بنى سيرة الراوي، وجعل منه شيئاً ما زال يتكوّن، لقد أدرك الحكواتية والقصخونات أن هناك شيئاً كبيراً يتهددهم، ولكنه كان بعيداً عن الخيال واللسان، وكلهم أدركوا بعد تعاقب الأيام والدهور أن هناك شيئاً وحيداً معلوماً عن الراوي، إنه يسكن في مكان يسمى الفراديس، هذا ما أدركه الخيال والفطرة.

ابتــدأ من نينوى مــن الثيران المجنحــة، إذ أخذ أشــكالها وقال لا تصدقهم، ولا تصدق عينيك، فالثيران المجنحة لها ثلاث أرجل.

***

في غرفة دافئة لها طعم الظلام، تفتحت روائح شــتى من الخشــب وصرر العجائز، وبعيــداً عن عيون المدينة تفتحت في جوف المدينة أذنان، وفي الوقت نفســه بدأت شــفتان ترويان دهــوراً من الحوادث والمواعظ والحكايا والمراوي..

فــي غرفة لها شــكل العصور وهي مجتمعة وفي ظلمة راعشــة، ابتدأ لسان واحد وأذنان ترويان رحلة انطلقت من فجر الفراديس حتى وصل إليّ، وأمــا في تلك الغرفة المنزوية فقد طفق رجل يحكي أياماً من الحوادث، فأخذ شــكل الحكواتي الذي يجلس في الخانات ويجتمع حوله رجال وأشــباه رجال مدنيون وعسكر صناع وشحاذون وأشباه نساء وعتالون، ولغط كبير يروي لهم كيف بنيت نينوى، وكيف وصل الحصار إليها، ويروي عن أول رجل حلق لحيته فيها.

تكلّــم عن الجوامــع وكيف بنيت المنارة الحدبــاء، وقال إن نينوى هــي المدينة الوحيدة التي تكبر دون عنــاء، رغم الحروب والنكبات، أنا وأذناي كنا نستمع بخوف ووجل كيف تنطلق الكلمات التي لها وقع السـحر، نتابع حركة الشــفاه المتيبســة وهي تطلق الحروف، ونسمع هسهســتها وهــي تقال وتفضــح الحقب... حكى عن كل شــيء، حتى وصل إلى الفيضان العظيم، كيف غطى تل التوبة.

نهض من مكانه ووقف وهو يسيل بكلماته، وينشر حروفه فوقي وأنا أبكي أمامه، وتمنيت لو يستمر، لكنه توقف ليفتح عباءته المتهرئة بلونها العتيق، ويدخل فيها وهو يردد انتهى زمن الحكواتية، وسيولد زمن القصخون، وسترون كيف ستولد معه الأوبئة والكسل والاحتلالات التي لن تنتهي، وستعج المدينة بالأوغاد الذين ستفوح روائحهم رغماً عنهم. سترون كيف سيكون ولدي القصخون هو الذي سيجمع حوله الآذان، وسترحلون معه عبر نينوى وبواباتها السرية، وسيقضي معكم رحلة الموت والعذاب.

آه يا ولدي لو جئت في زمن آخر، وانقطع الصوت لتسقط العباءة وحدها على الأرض.

***

في الغرفة أمامي جلس رجل يرتدي نفس العباءة العتيقة، وقد تهرأت أكثر من ذي قبل، وروائحها كانت جميلة، وهي تسيل في كل اتجاه، وفي داخلها جلس هذا الرجل الذي لا أعرفه وهو حليق اللحية، ويحمل بيده مروحة يروّح بها عن نفسه، وبين ساقيه استقرت صرّة من الأشياء، وبدا ناحلاً ضئيل الجسد، ويجلس على دكة مرتفعة، وأنا أقعد قبالته وأنتظر الحروف كي تقول نفسها، إنه وجع الحكايا وأنصافها، أنتظر كي أرى هذا الرجل يعرّي نفسه أمامي، ثم يعرّي الحوادث التي تعاقبت عليه. ابتدأ من أول عامل شقّ الطريق أمام دجلة لتحترق المدينة، وليشقّها إلى نصفين خجولين ويمسك المدينة من فرجها ويكشف عن أمعائها الملساء.

النهـر.. يـا ويلي!! كيـف مضى دجلـة دون أن يراه أحد سـوى الطيـور الجائعة، في مسـاء وصباح ثقيل تقبـل صفحة الماء وتحكي للنهـر العجوز كيف أن المدينة الإنسـان غادرت منـذ فجر الموصل الأول، وقـال للطيور قولي لي، كيف تنـام المدينة عن قلبها المتعب، وعن شـحاذها وتترك الجميـع في هدأة الليل؟ ليطـلّ صباح جديد لا يحمل إلا عجزهم الكسـول كيف للمدينـة ألا تحدق إلا في وجه الماء العجـوز؟ قولوا لها إن دجلة مـا زال يحتفظ بقعره بفأس قضيب البان القتيل الذي ضرب أول ضربة ليشقّ الطريق أمام دجلة، والذي عبّدتهُ المدينة بفضلاتها.

كيـف يحـدث أن سـارت مياهي نحـو الجنوب، قل لهـم إن فأس قضيب البان ما زالت ناصعة البياض لم يمسها الصدأ بعد. كيف أيتها الطيور عُبّئت المدينة بكل هؤلاء الحمقى الذين يسهرون حتى الصباح وجيوبهم المثقوبة تتدلى مثل تعويذة المجنون من رقبته؟ وهأنذا أتدلى من رأسـي في الشمال البارد وحتى الجنوب، ولم تتعب نفسها المدينة لتسـأل عن هذا المعتوه، الذي يمضي منذ المسـاء الحزين مثل ضوء فانوس شـحيح، أحشـاء النهر المثلمة، وأرغفة خبز الغرقى، وحبال الشك، ومساحيق العاهرات والألبسة الداخلية، والطيور التي لا تنحر إلا في جوفي، والسلطة المربعة واستبداد القرون والأحجار الخجولة.. ووحل المستنقعات الملتصق بقعري.. وأسماء القتلة المأجورين...

لقد جعلتني المدينة قبراً، يغيب كل شـيء وهأنذا أعود من جديد يا قضيـب البان، فقل للمدينة النائمة أن النهـر العجوز قد انتفخت بطنه

بكل شـــيء، وهو لم يعد يحتمل هذه المهرجانات العامة، وسـيرد هذه الكتل في صباح أو مساء لا فرق، ما دامت المدينة القبر لا تفرق بين صباح النهر أو مســاء الموت، سأخرج كل شيء إلا فأسك التي شقت أول طريـق أمامــي، لأموت هناك وحيداً فــي الجنوب وعلى ضفاف الملح. ملح أبيض مثل رغوة فم المدينة عندما تزبد، وتقرر أن تموت على نحو مفجع.

***

الرجل القصخون ولد وفي فمه قطعة من الفراديس، يقعد من أجلها القاعدون، ويفرّ من هول حروفها ضعيف القلب. رجل أمسك المدينة مـن صرتها التي لم يرهـا أهل نينوى بعد... آه أيتهـا المدينة، هل ما زال هناك شوارع لم تطأها عيون الشحاذين وأشباه الأنهار الصغيرة، عندما تشقّ المدينة من فرجها؟

قال الراوي: من هذه الغرفة التي لها شكل العصور وهي مجتمعة حولي، من هذه العباءة وهي تلتف حولك وحول المدينة لتمسك الأيام وتركبها فوق بعضها، سأروي لك عن وجع الأشياء من حولنا، وتتناثر السـقف من فوقنا لتطل النجوم علينا، وهو واقف وأنا المسـكين الذي ينتظر بداية الطقس الذي تعاقبت عليه الأحلام والمشـانق المتدلية من أسـوار نينـوى الحصينة، من النهـر الذي سـار دون أن يوقظ أحداً، ليمضي بسلام محارب عتيق وهو يغادر المدينة التي لم تنتبه من أول قطـرة وحتى آخـر رؤيا له، وهو يبكي بصمت خجول من تحتنا ومن

حولنا. والعباءة يحركها الهواء، يرتجف القصخون ويلملم دمعة بدت على خده، وهي تسير نحو الأفول في فمه الذي أخذ يقول الحروف لتتكسّر من فوقنا، تحركت الكلمات داخل الصرّة لترسل هسهستها العتيقة، وتبدأ رحلة الأفول الذي يمد جسده المستريح حتى آخر قطرة من قطرات الحياة، ودجلة الذي آثر أن يشق المدينة، ويفضح أمعاءها التي لم تعد ملساء كما في السابق.

***

في جوف ليل تجول فيه كلاب تقودها كلاب، وفي جوف رجل خرب تجوب روحه عدة أخلاط من سفلة ولصوص ومرابين وأوغاد، وفي بالوعة لها رائحة الحضارة وهي تطل بوجهها القبيح، يدخل خلسة أحدهم ليرتدي عباءة عتيقة كانت تستخدم فيما مضى مظلّة للعائدين من سفر وعناء طلب المراوي والمغازي والسير وكثرة أخبار المروءة..

نهضت العباءة به في غرفة مضى عليها أكثر من مئتي عام لم يدخلها إلا ثلاثة رجال، وسراج ضعيف يضيء أقل من مساحة صرّة رجل واحد مستلق على عموده الفقري، لتتمروى معه أذنان وحيدتان، سمعت وأدركت ولم تبصر زمن الحكواتي والقصخون، وبفطرة الخلود أدركت شيئاً واحداً الفراديس الغائبة.

ها قد وصلنا إلى بداياتك أيها المرواتي، فكيف وطئت أقدامنا زمناً تجوب فيه الخنازير البرية والمدجّنة وهي ترتدي زي الفئران في ليل

بهيـم. إنهم هنا بـكل أمراضـهم وقلة عمقهم يجوبون الليل المسـتيقظ، وينامون في النهار النائم. والأوجاع والأمراض تحتضر في أجسادهم وهم جاثمون فوق جسد الحضارة.

أي زمن وصلنا؟ أخبرني أيها المرواتي، تمروَ لي قليلاً عنهم، وقل هـل هو زمنـك، أم زمنهم الذي يغادر وهم له مدرك؟ عتالون وأوغاد خطفوا الدنيا وهي ما زالت تتعرى لهم. كيف الخلاص من هذه المحن التـي تدك السـؤال، ويحتضر فيها المـوت دون الموت. كيف وصلنا إلـى هذا اليوم 1978/4/20 وأنت تتمروى أمامي وأنا القاعد والمنتظر لإشـارة الخلاص. كيف أيها المرواتي ومن أين لي أن أجيد الاستماع لمرواتـك، وكل هذه الدنيا تبصر وتشـاهد كيف نحـت أولئك الرجال موتهـم بإصرار ووجْد.. هل ابتدأ زمنك؟ زمن المراوي أم أنك مثلهم تتلصّـص من ثقب البـاب عليهم، ونرى أنا وأنت الأعياد والأجسـاد والطقوس التي دارت علـى هذه الغرفة الدافئة بظلمتها وقنديلها الذي أضاء ثغر الحكواتي وشفاه القصخون المتيبسة.

***

في غرفة لها شكل العصور وهي تنتظر الكلمات ليقولها المرواتي. وسـقف تناثرت أجزاؤه ومن خلف العالم بدت النجوم وتكشّفت حقيقة ما جرى في الداخل:

خارج هذه الغرفة النهر الذي شـقّها مـن صرّتها وفضح أمعاءها الملسـاء والقبور الأنيقة التي تحـوط المدينة. في الداخل بدأ القادم من

الفراديس يحكي ويقصّ ويسرد ويتمروى. وجاء دوره ليتمروى وهو جالس على المدينة وشفتاه في أذني يتمروى عن ولادة الأشياء وحزن الجوف. المدينة والقبر... قال وهو يمشّط لسانه: من الحروف التي بقيت، آه لو أدرك ذلك الرجل تلك الليلة التي امتدت من ليلته وحتى هذه اللحظة علّه يتراجع عما قال لكن لا عليك، فقد وصلنا ونحن في هذه الغرفة التي تقبع في أتون الحضارة المنطفئة من كل شيء إلا دروساً تقدمها في كل لحظة لفئران الليل، كيف وهم ينحتون رحيلهم بجمال آسر.

حتى القبور في نينوى لها أناقة مخجلة، وسترى كيف أن الموتى لن يشعروا بالراحة بعد الآن، تحركت العباءة بعنف واضطربت، وبدا كل شيء يسقط، الجدران والقبور، ودجلة سقط أيضاً ولم يستطع إلا أن يحملهم، وتهاوت المدينة، ولم يبق إلّاي وعباءة المرواتي التي غاب فيها.. وجدار وحيد وأعزل إلا من جملة كتبها المرواتي.. ماذا ستقول للذين أبادوا قارة اكتشفوها بالصدفة.. فماذا هم فاعلون بنا؟.. وقد أعدّوا لنا..... نحن المتعبين. آه كم هو قبيح وجه هذه الحضارة...

نينوى عام 2027

الموصل/ تل التوبة

بعد الاحتلال

كان هناك في أسفل التل شاهد قبر واحد، هو ما تبقّى من المدينة، وأذنان وصدى صوت يتردّد دون عناء.. أقبل أيها المرواتي...

الموصل المحتلة..

بعد عصر المراوي والمغازي والسير

المحتويات

الإهداء.. 5

حشرجةُ الترائب 9

المعولُ.. 33

خُلصاءُ المياه 41

الخرزاتُ المبتورةُ أو الحائطية... 53

مكتبةُ السدى 65

لوحةٌ لظهيرةِ الصيف 83

لوحَف أو صورةُ اليحموم 93

حصادُ الغرقى..103

صريفُ رؤيا 113

مساءُ الحرب..127

خريفُ الدمى 133

خارجُ الغرفة 141